
رواية
عبدالرحمن السقاف الطهيفي
فجر البشرية
للنشر والتوزيع

فجر البشرية

فجر البشرية

رواية

عبدالرحمن السقاف الطهيفي

الطبعة الأولى
2024

عصور للنشر والتوزيع

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/11/6338)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب

عنوان الكتاب: فجر البشرية

تأليف: الطهيفي ، عبدالرحمن السقاف

بيانات النشر: - عمان: دار عصور للنشر والتوزيع،2023.

رقم التصنيف: 813.03

الواصفات: / الروايات العربية// الأدب العربي// العصر الحديث

ردمك ISBN: 978-9923-751-69-5

عصور للنشر والتوزيع

عصور للنشر والتوزيع

هاتف: 0795979893

ص. ب : 910431 عمّان 11191

E:Mail: ausoor2020@gmail.com

مجموعة سادر

قبل زهاء عشرين ألف سنة في طوايا العصر الحجري، كانت هناك مجموعة جائلة من البشر يصل عدد رجالها قرابة المائتين، يجوبون ما أَلِفُوه من الأرض مع أسرهم طلبًا للصيد والثمار، يقودهم شاب جسور يدعى سَادِر، تخطى للتو الثلاثين من عمره، وكان لديهم يقين لا يتزعزع أنهم البشر الوحيدون في هذا العالم.

وكان من نتيجة التغير الحاد في المناخ، أن وَجَدت هذه المجموعة البشرية لأول مرة في حياتها، أن طرائد الصيد والثمار تشح باضطراد، وكان ظنهم أن هذا الأمر مؤقت؛ لأنهم لم يشهدوا من قبل ندرة في الغذاء، إلا أن قائدهم سادر أدرك أن وتيرة تناقص الغذاء لن تتوقف، وأن وجودهم نفسه قد أصبح محل شك، فبدا له أن الحل الأوحد يتمثل في الإقدام على ما لم يجرؤ أي من أسلافهم قط على الإقدام عليه.

كان أولئك البشر يعبدون النهر الجميل الذي يعيشون على ضفافه، مؤمنين أنه سر الحياة ومصدر الوجود. وكان القائد سادر على خطى والده الراحل، يقود مجموعته في تنقل دائم على الضفاف، بين النهر وغابة تمتد بموازاته، على شريط أخضر بديع يقع بين الغابة وذلك النهر المقدس الذي يتدفق نحو شلال مهيب، قبل أن يهبط منه في طريقه المحتوم نحو البحر.

كانت المجموعة تتنقل مسايرة النهر، من الأراضي المرتفعة قرب منابعه، نزولًا حتى الشلال، ثم يكرون راجعين أدراجهم نحو المنابع، وهكذا طيلة العام، فلا يحين وقت عودتهم لذات المكان إلا وقد تجددت موارد الغذاء فيه، وهم حريصون ألا يبتعدون كثيرًا عن النهر، ملتزمين هذا الخط الحذر في تحركهم كما ورثوه من أسلافهم؛ وغايتهم من ذلك هي الاستفادة أثناء سيرهم

من خيرات الغابة دون المغامرة بالدخول في أعماقها، حيث تتحول إلىٰ أدغال كثيفة مشتبكة، وفي ذات الوقت يبقون علىٰ مقربة من النهر، يتوقّون العطش بجواره، ويقتنصون ما أمكنهم من أسماكه.

وكان من معتقداتهم الموروثة، أن الأرض التي ينزل إليها نهرهم المقدس بعد نزوله من الشلال، هي أرض حرام يعاقب النهر من يتجرأ علىٰ وطئها، فلم يسبق لهم أن تجاوزوا الشلال؛ ولذلك لم تسبق لهم رؤية البحر، ولا سمعوا عنه، ولا خطر علىٰ قلوبهم وجوده.

ومثلما هم لا يتجاوزون الشلال في هبوطهم، فهم لا يتجاوزون منابع النهر في صعودهم في الاتجاه الآخر، وذلك بسبب وعورة الأرض وقلة الغذاء والماء هناك، بعد انحسار الثلوج أواخر العصر الجليدي. ولكن كل شيء كان علىٰ وشك أن يتغير إلىٰ الأبد.

كانت هذه المجموعة البشرية تتوارث الاعتقاد بأن النهر يجري إلىٰ منتهىٰ الأرض عند الأفق، عند قاعدة قبة السماء، حيث تتعانق هناك خضرة الأرض مع زرقة السماء، فيروي نهرُهُم المقدس الشمسَ والقمرَ والنجومَ بالحياة كما يروي أحياء الأرض، فيجدد لأجرام السماء حياتها وعنفوانها في كل حين.

إلا أنهم هذا العام ولأسباب مستجدة أمام خطوة فارقة في تاريخ المجموعة، عزم القائد سادر علىٰ أن يطلب من المجموعة القيام بها.

كانت العادة حين يبلغون الشلال المطل علىٰ الأرض الحرام، أن يكتفوا بمد أبصارهم نحو الأرض الحرام، حيث ينْسَلُّ النهر شاقًا السهوب الخضراء علىٰ مدىٰ البصر.

إلا أنهم حين وصلوا هذه المرة إلىٰ منطقة الشلال، واجههم سادر بحقيقة الحال، مؤكدًا بأنهم إن كروا راجعين باتجاه المنابع كعادتهم، فإنهم حتمًا ملاقون

الهلاك؛ وذلك أنهم عندما يشح عليهم الغذاء عند المنابع سيجدون أنفسهم هذه المرة غير قادرين على البقاء ولا على العودة؛ حيث أن خط العودة من هناك قد أصبح أيضًا شحيح موارد الغذاء.

ذُهل رجال المجموعة البشرية حين عرفوا من سادر حرج الموقف، فقد تعودوا على نمط حياتهم وتنقلهم ذاك دون أن يلاقوا أمرًا مماثلًا، ولم يتركهم سادر للذهول طويلًا حتى صعقهم حين أضاف بأن خيارهم الوحيد المتبقي هو النزول إلى الأرض الحرام، علّهم يصيبون بها ما يطلبونه من غذاء.

كان القائد سادر مطاعًا فيهم، لكن حين كان الأمر متعلقًا بالأرض الحرام، ظل أيامًا بطولها يصارعهم بالحجج ولم يُفلح بانتزاع قبولهم بتجاوز الشلال، فعرف أن عليه إقناع حكيم المجموعة أولًا للاستعانة به في تسويغ النزول إلى هناك.

وكان حكيم المجموعة هذا رجل في آخر عقده السادس، اسمه "رفيق النهر"، إلا أن لقب "الحكيم" غلب عليه؛ لأنه يتبوأ مرتبة الحكيم بالنسبة للمجموعة، وهي مكانة تتوارثها أسرته، في مجتمع تتداخل فيه مفاهيم الحكمة والكهانة والسحر، فهو الكاهن والساحر والحكيم معًا.

فراح سادر ينفرد بالحكيم محاولًا جهده لإقناعه، وحين تيقن الحكيم من جدِّية الخطر على وجود المجموعة، ساعد سادر في إقناع المجموعة بتجاوز الشلال والنزول إلى الأرض الحرام، لكنهم اشترطوا على سادر أن ينزل هو أولًا إلى الأرض المحرمة، ثم يتبعونه بعد أن يصل إلى الأرض أسفل الشلال، فأبدى قائدهم الشجاع استعداده لذلك، على أن يبدأ نزولهم إلى الأرض المحرمة صباح اليوم التالي.

في الصباح تكامل عدد المجموعة على المرتفع الصخري للشلال، يتجاذبهم القلقُ مما سيقدم عليه قائدهم، وبدأ سادر بالنزول من المنحدر الصخري، وفي إثره رفيقه المخلص هميان، الذي يُعَد ذراعه الأيمن، ولحقهما بومبا، وهو شاب على تخوم الثلاثين، ممتلئ ومفتول العضلات، ويعتبره سادر سلاحه الأقوى.

واصل الثلاثة نزولهم بترسُّل على منحدر الشلال المهيب، والعيون المترقبة من أعلى المنحدر تتعلق بهم، متوجسة انقضاض غضب النهر المقدس عليهم، لكنهم لم يلبثوا أن وصلوا برباطة جأش سالمين إلى الأرض أسفل الشلال، فبدأت قلوب أفراد المجموعة البشرية الوجلة تنبسط بالطمأنينة، وتتسرب في عروقهم الثقة.

ناداهم سادر وهو يشير لهم بيده "هيا، هل رأيتم؟ إن النهر المقدس غير ساخط، بل يرحب بنا في أرضنا الجديدة. هيا انزلوا".

من مكانهم أعلى المنحدر كانوا يرون سادر يلوح وينادي، وعلى الرغم من طغيان هدير مياه الشلال على صوت سادر، إلا أن الشك لم يخامرهم عن فحوى نداء القائد.. لقد نجح وهو يطلب منهم الآن اللحاق به كما قضى الاتفاق.

وكان أول الملتحقين بسادر، زوجته ناشا وابنه ميراك ذو السبعة عشر ربيعًا، ولمّا وصلا إلى حيث يقف أسفل منحدر الشلال، عانقهما بحرارة، فتعالت صيحات المتحمسين على قمة المنحدر: "هيا لننزل، هيا لننزل." وبدأوا بالنزول، وتبعتهم البقية المرتابة وبعضهم يتوارى وراء بعض، تتبعهم النساء مع الأطفال، وكان بعضهم كلما سمع صوتًا مرتفعًا لمياه الشلال المنهمرة على الصخور، يكاد أن ينخلع قلبه، ظنًا أن غضب النهر قد أحاط بهم.

اكتمل جمعهم أسفل الشلال، وانقشع وجل الأحباب على أحبابهم، وراحوا يتأملون منظر الشلال المُنيف لأول مرة من الجهة الأمامية.

وخلب ألبابهم المشهد البديع للمياه الهادرة عند قمة الشلال، حيث تتدافع كتل المياه الضخمة المهيبة، قبل أن تنفرد إلىٰ الأسفل جدائلًا بلورية ممتدة، تنهمر علىٰ جنادل الصخور، ناشرةً في الأجواء رذاذها البارد مع ألوان قوس قزح.

قال سادر: "لا يمكن لهذا الجمال أن يكون في أرض محرمة علينا، هيا لنمضِ ونترك الخوف هنا عند الشلال، انظروا إلىٰ هذه الأراضي التي لم تطأها أقدامكم من قبل يا بني البشر، ولنمض قدمًا وسنجد كل ما نريد من ثمار وصيد، هيا قبل أن يعضُّكم الجوع".

قال كيمار، وهو الرجل الأظرف في كل المجموعة، وكانوا ينادونه ظريف: "لماذا تذكرني الجوع أيها القائد؟ لقد أنسانيه الخوف حتىٰ ذكرتني به أنت".

قال سادر ضاحكًا: اطمئن يا ظريف سنجد الطعام، ولكن علينا أولًا أن نواصل السير.

البحر

كانوا أثناء سيرهم على الشريط الأخضر الواقع بين الغابة والنهر يعرِّجون بين الفينة والأخرى على أطراف الغابة، فوجدوها غنيةً بالثمار، لكن سادر كان يحثهم على مواصلة المسير لاستكشاف هذه الأرض التي أدهشهم غناها. وبعد ثلاثة أيام من مسيرهم بمحاذاة النهر المتجه شمالًا، وصلوا إلى تلال متصلة تقطع عليهم الشريط الأخضر، من ضفاف النهر حتى الغابة، وتحجب الرؤية عن ما ورائها، فأسرع سادر بصعود إحدى التلال لرؤية ما تحجبه التلال، وحين بلغ القمة وقف مُتَسَمِّرًا في مكانه، مادًا بصره نحو الأفق، فزاد فضول الجميع ولحقوه إلى قمة التل، وراح كل من يبلغ قمة التل يقف مشدوهًا، وكأنما هم تماثيل الشموع، ذلك أنها أول مره تلتقي عيونهم بالبحر.

قال سادر بصوت تحفه الدهشة: "يا له من ماء كبير ومتسع، انظروا إلى النهر المقدس يضيع فيه"، ثم التفت وراءه يلتمس حكيم المجموعة، عسى أن يكون لديه تفسيرًا لما يرون، وإذا الحكيم مأخوذٌ كغيره من رهبة المشهد، وقال: "لم أكن أتخيل وجود مثل هذا الماء الكبير".

قال الفتى ميراك بن سادر: "ربما كانت هذه نهاية الأرض يا أبي!".

كان التشتت يدور برؤوس الجميع، لأن اعتقادهم كان راسخًا بأن النهر المقدس لا يتوقف حتى يبلغ مُنتهى الأرض، حيث تلتقي الأرض بتقوس السماء.

رفع سادر صوته ليُسْمِع الجميع قائلًا: "اطمئنوا جميعًا ولا تُراعوا مما ترون.. نعم إن هذا الماء كبير، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى الخوف والقلق".

قال ظريف: "أين الحكيم الذي ملأ آذاننا بالحديث عن تلاقي النهر مع السماء، وأن النهر يروي النجوم بالحياة، فإذا بالنهر ينتهي أمامنا هنا في ماء آخر".

قال الحكيم: "وهل ترى نهاية هذا الماء الكبير يا ظريف؟ إن بصرك ليتقاصر قبل أن يبلغ منتهى الماء، ولا يداخلني الشك بأن هذا الماء يمتد حتى يبلغ نهاية الأرض، حيث تلتقي الأرض والسماء".

كانت ناشا زوجة سادر تقف إلى جوار زوجها على قمة التل وقد انخطف لونها، وغارت حيويتها المعروفة، وأمارات الكرب بادية عليها، وأدرك سادر أن التشكيك بمعتقداتهم قد جرَّ ناشا إلى ذكريات مقتل والديها على يد أحد فتيان المجموعة.

وقد وقعت تلك الحادثة قبل نحو عقدين من الزمن، حين كان قائد المجموعة والد سادر، وكان الفتى القاتل يسمى شادر، ويبلغ من العمر عشرين عامًا، تزيد أو تنقص قليلًا، لكنه كان يبدو أكبر سنًا مما هو على الحقيقة، ويتميز بمتانة البنيان وشدة القوة، ولم يمنعه كونه يتيمًا من أن يكون متقحمًا غير هياب، إلا أن الشر كان يملأ قلبه، وتكرر نهي والد سادر له عن شروره، ولكن لم يُجْدِ النهي شيئًا، وبلغ تمادي الفتى شادر مداه حين قام بمحاولة الاعتداء على ناشا، أثناء قيامها بجمع الثمار من أطراف الغابة، وكانت ناشا فتاة تفجرت للتو أنوثتها وفاضت فتنة وسحرًا، فقاومته وصرخت مستنجدة بوالدَيها، فهُرعت والدتها لنجدتها، وحاولت إبعاد شادر عن ابنتها، فلطمها بخارج كفه وأدمى وجهها، وجاء والد الفتاة مهرولًا على صراخها يحمل هراوة خشبية، فلمّا رآه شادر همَّ بالفرار، لكن والد الفتاة تداركه بضربة في ظهره، فثارت ثائرة شادر وانقض على والد الفتاة كالوحش، وانتزع الهراوة من يده، وضربه بها على رأسه

ليخر صريعًا، فتدخلت زوجة الرجل لتحول بين شادر وبين الإجهاز على زوجها، فضربها بالهراوة بقسوة كما ضرب زوجها، وحين أتى القائد يصحبه جَمْع من رجال المجموعة ملبِّين استغاثات الفتاة، وجدوا أن الزوجين قد لفظا آخر أنفاسهما، ففاض الكيل بالقائد وعزم على قتل شادر ليضع لشروره حدًا، فدعا رجال المجموعة إلى الإمساك به، وتكبيله بالحبال التي كانوا يصنعونها من الجلود ولحاء الأشجار، ولم يطل البحث عن شادر، وغلبته كثرة القوم، وجاؤوا يسوقونه مكبل اليدين، فطلب منهم قائدهم الحازم اقتياد شادر إلى المرتفع الصخري للشلال، الذي تصادف أن المجموعة كانت بجواره ذلك اليوم، وإلقاءه مقيدًا من قمة المنحدر إلى النهر أسفل الشلال، فقام الرجال بإلقائه كما أمر القائد، فهوى شادر وهو يصرخ حتى اختفى صوته معه تحت الماء، وكان ذلك آخر العهد به.

ولطالما كان عزاء ناشا في نهاية والديها المروعة يكمن في معتقدات المجموعة، فهم يؤمنون بأن النهر المقدس يسترد أجساد الموتى بعد مدة من موتهم حيثما كانت، ثم يأخذها معه في مساره الدائم نحو مُنتهى الأرض، حيث يصنعهم هناك نجومًا مضيئة، ثم يرفعها عاليًا في السماء لتستقر هناك، فكانت ناشا تعزي نفسها بمجرد تذكّر أن والديها نجومًا تضيء السماء، بعد أن حملهم النهر المقدس إلى نهاية الأرض، ورفعهم إلى السماء، ولكن ها هو ذا النهر الآن أمام ناظريها لا يصل إلى نهاية الأرض، ولا إلى بداية السماء، بل يضمحل ويتلاشى في هذا الماء الكبير!

نزل كل أفراد المجموعة من التل متوجهين إلى البحر، باستثناء ناشا وسادر، وكانت ناشا لا تزال على حالها من الوجوم، فقال لها سادر ليواسيها: "إن هذا الماء الكبير استمرار للنهر المقدس، ألا ترين كيف يمتد حتى نهاية الأرض؟"

وأمسك سادر بذراع ناشا وأضاف: "لا عليكِ، إن كل شيء كما يجب أن يكون، هيا لننزل"، أمالت ناشا رأسها على كتف سادر، وبدءا بالنزول من التل.

كان الفتى الجريء ميراك بن سادر أول الواصلين إلى البحر، وباشر باغتراف الماء بيده ليشرب، ولم يكد يذقه حتى مجه صائحًا: "إن هذا الماء آسن".

راح الجميع يتفحصون اكتشافهم الكبير، وبدا لهم طعمه شديد الملوحة، على الرغم من نقص ملوحته في ذلك المكان.

قال الحكيم رفيق النهر: "إن هذا الماء ليس قذرًا ولا متعفنًا، انظروا إلى هذه الأسماك الصغيرة، لو كان الماء متعفنًا لماتت الأسماك، كما يحدث في البرك الآسنة".

فعلق سادر: "بعض الأسماك تعيش في البرك الآسنة.. على كلٍ لقد حُق للجميع أن يُريحوا؛ فقد أجهدناهم بالمسير، وبلغ بهم الإعياء مُنتهاه".

كانت الشمس تتدحرج نحو المغيب حين تراجع أفراد المجموعة قليلًا عن شاطئ البحر بطلبٍ من قائدهم، وجلس الجميع للإراحة، وما كادوا يفعلون حتى دهمهم النعاس لما لاقوه من وعثاء المسير، فغرقوا في نوم عميق.

الغرباء

استيقظ أفراد المجموعة في الصباح تباعًا، في يومهم الأول في هذا المكان الفريد، وكان أول المستيقظين سادر، وقام بتفحص محيط المكان، ودخل الغابة، ثم عاد ليخبر الجميع بأنهم سيقيمون في هذه الأرض ولن يبرحوها، لأن وفرة الطرائد والثمار ستغنيهم عن ما ألفوه من التنقل بحثًا عن الطعام.

وأخذ بعض رجال المجموعة يدخلون الغابة، ويعودون إلى أطفالهم ونسائهم بالصيد الوفير، والثمار المتنوعة، بينما كان سادر يجلس على قمة ربوة خضراء، ويرقب المشهد من هناك، ومعه رفيقه هميان، والحكيم رفيق النهر، وبومبا، ومادو الحاذق.

ومادو الحاذق هذا رجل نحيل في نهاية عقده الثالث، يدعونه الحاذق لدأبه على ابتكار أدوات وحيل تُسهِّل عليهم ما يواجهون من مشاق، وكانت آخر ابتكاراته مقلاع الحجارة، يصنعه من جلود الحيوانات، ويُستخدم لقذف الحجارة إلى مسافات بعيدة، حيث يضع الشخص حجرًا في جراب يربط من طرفيه بحبلين، ثم يمسك الشخص طرفي الحبلين، ويدير المقلاع في الهواء بشكل دائري، ثم يفلت أحد الحبلين، فتنطلق الحجر إلى مسافة بعيدة.

كان سادر وجلساؤه يتناقشون بشأن البحر، وهذه الجنة البديعة، بينما كانت الشمس تتبدى جزئيًا على استحياء من وراء أستار الغيم، ومن هناك راحت ترسل أشعتها الفضية، فيما أسراب الطيور المغردة تندفع من جهة النهر نحو الغابة، مارة فوق الجالسين على قمة الربوة مرسلةً تغاريدها، وأغصان النبات من حولهم تتثنى وكأنما قد هزها الطرب لتغاريد الطيور.

وبينما كان النقاش دائر بين سادر ورفاقه، طرق أسماعهم صراخ مرتفع من ناحية الغابة، فنهضوا وانحدروا من الربوة مسرعين لينظروا مصدر الصوت،

فإذا ابن بومبا، الصبي البالغ ثلاثة عشر عامًا يخرج من الغابة وصراخه يشق السماء مناديًا: "أبي، أبي!"

تلقاه بومبا قائلًا: "ما بك يا بني؟"

فلم يحر الولد جوابًا حتى وقف بين يدي والده وهو يطارد أنفاسه، فأمسك بومبا بكتفي ابنه وقال وهو يهزه بلطف: "لا تَخَف، قل لي ما بك؟" قال الصبي: "كنت أجمع الثمار ورأيت رجلًا لم أعرفه، فابتعدت عن المكان بهدوء، لكنه رآني ولحق بي، فركضت هاربًا، فركض خلفي وهو يقول: "توقف، توقف"، ولمّا اقتربت من طرف الغابة توقف عن مطاردتي، أما أنا فلم أتوقف حتى وصلت إليكم".

فسأله سادر: "ومن يكون ذلك الرجل يا بني؟ أنت تعرف الجميع".

أجاب الصبي وأنفاسه تعود لانتظامها: "إن ذلك الرجل ليس منا، لم أرَ ذلك الوجه من قبل" قال بومبا: "ما بك يا بني! أنا أعرفك شديد الذكاء، وتعلم أنه لا يوجد بشر غيرنا".

قال الصبي: "لم أعد طفلاً يا أبي، وأعرف وجوهكم جميعًا، وأقول لكم بأن ذلك الرجل ليس منا".

قال بومبا وهو يضم ابنه إلى صدره: "حسنا يا بني لا تخف".

فقال الصبي وهو يتملص من ذراعي والده بضيق: "لست خائفًا يا أبتي. أعلم أنكم لم تصدقوني، ولكن كونوا على ثقة بأن هناك رجل غريب في الغابة، ولو كنت قويًا كأحدكم لواجهته بنفسي".

ذُهل الجميع من مقالة الصبي الواثقة، وراحوا حيرى يتلفتون إلى بعضهم حتى قطع الحكيم الصمت بقوله: "نعلم أنه لا يوجد بشر غيرنا، ولكن قد

يكون في الأمر شيء ما لم نفهمه بعد، ولا بد أن هناك سبب كاف حال بين الولد وبين التعرف على ذلك الرجل".

نظر سادر إلى أحد رجال المجموعة يدعى كادوس، يتميز بمقدرته على التعرف على آثار الأقدام واقتفائها، وقال: "اذهب يا كادوس إلى حيث كان ابن بومبا يقطف الثمار، وانظر لمن تعود آثار أقدام الرجل الذي كان يطارده، فأنت تعرف آثارنا جميعًا".

انطلق كادوس مسرعًا نحو الغابة، ثم توقف وقال: "ليأتي الصبي معي ليريني المكان".

التفت سادر نحو بومبا، فالتفت بومبا بدوره نحو ابنه وقال: "اذهب مع كادوس لتريه المكان"، ولكن لم يتحرك الصبي من مكانه، فقال له بومبا: "حسنًا، سأذهب أنا وأنت معه".

انطلق بومبا وابنه مع كادوس ودخلوا الغابة وعيون الجميع تلاحقهم.

كان أفراد المجموعة ساعتها قد اجتمعوا كلهم، وسرى بينهم نبأ ظهور رجل غريب في الغابة، وكان سادر يريد تهدئة مخاوفهم؛ لعلمه أن بعضهم لم يطمئنوا بعد إلى دخول الأرض المحرمة، ويترقبون أن تنزل بهم النوازل من كل صوب.

قال سادر بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجميع: "لا تُراعوا، لا يمكن أن يكون هناك بشر غيرنا".

فعلق مادو الحاذق بصوته النحيل قائلًا: "نحن جميعًا نقول هذا معك يا سادر، ولكنّي لم أعد متأكدًا من أي شيء، ثم لو كان هناك بشر غيرنا، لماذا يجب أن نخافهم؟" صمت مادو قليلًا ثم أضاف: "هل تصدقون أني مرات أتساءل إن كان هناك بشر غيرنا في الأراضي البعيدة فكيف سيكونون؟ أعني كيف يحيون حياتهم هناك؟ وهل يعبدون النهر وهم بعيدون عنه؟"

قال هميان رفيق سادر المقرب: "ماذا تقول يا مادو؟ كيف يمكن لإنسان ألا يعبد النهر؟!"

استسلم سادر لجاذبية حديث مادو الذي يروقه في العادة، وقال: "هيا اجلسوا ودعوا مادو يكمل كلامه، إن أسئلته وخيالاته لا تمر لنا بألباب." ثم استدرك سادر: "ولكن عليكم أن لا تخلطوا بين أحاديثه عن ما يريد صنعه من حيل وأدوات، وبين تساؤلاته الخيالية، فالأولى حكمة قائمة، والثانية ليست أكثر من تخيلات."

جلس سادر ومادو وتبعهما سواد المجموعة، بينما ظل قلة وقوف يترقبون بقلق عودة كادوس بجلية خبر الرجل الغريب.

ابتسم مادو واستأنف حديثه قائلًا: "وأحيانًا أسأل نفسي إن كان هناك بشر غيرنا فكم سيكون عددهم؟ وهل يتكلمون مثلنا أم لهم كلام آخر؟"

قال الحكيم رفيق النهر متوجهًا بالحديث نحو سادر: "ألا تسمع أيها القائد؟ وحق النهر المقدس لقد جُن مادو" ثم أعاد الحكيم نظره إلى مادو وقال: "كيف يمكن أن يكون لبشر كلام آخر؟ أنا لا أفهم كلامك عن الكلام الآخر.. الإنسان يبدأ بالتكلم وهو لايزال طفلًا صغيرًا، فكيف به كبيرًا ولا يُحسن الكلام يا مادو؟"

قال مادو: "أنا أوافقك يا حكيم أن الإنسان يبدأ الكلام من بواكير العمر، لكنه لا يتعلم من الكلام إلا ما يدخل أذنيه فقط، ولقد كنت في ما مضى أتأمل في أحوال الشيخ الأبكم قبل موته بسنوات، لقد كان لسانه سليمًا، وصوته يفوق أصواتنا قوة وإن كان بلا معنى، وكانت علته في السمع، فأدركت أنه لو تمكن من السماع لأحسن الكلام كما نحسنه، ومن وقتها بات جليًا لي أن القدرة على الكلام المفهوم ليست كامنة في الإنسان كالسمع والبصر، وإنما يتعلمها الإنسان بالسماع.

تخيلوا معي أن رجلًا نشأ منفردًا عن البشر منذ طفولته، كيف سيكون؟ لا شك أنه سيكون بسمعه وبصره مثلنا، أما كلامه فلن يختلف عن الشيخ الأبكم في شيء! وما ذلك إلا لأنه لم يسمع من يتعلم منه الكلام، إلا إذا تعلم كلام الحيوانات، كما تروي بعض حكايات أسلافنا بأن البشر كانوا في الزمان القديم يتحدثون مع الضواري، بل ويصادقونها، ولا أظن أن ذلك صحيح، لكن ذلك الرجل الذي يعيش منفردًا، لو التقى بامرأة عاشت مثله منذ طفولتها منفردة عن البشر، فمن الممكن أن يبدآن بمحاولة الكلام مع بعضهما كلامًا غير.."

قال أحد الواقفين المترقبين مقاطعًا: "ها قد عاد كادوس".

أقبل كادوس يحث الخطى ووراءه بومبا وابنه، ووقف أمام سادر وسط الحشد وقال بنبرة عالية: "لقد كان الصبي مُحقًا، هنالك أثر لرجل غريب في الغابة، وقد قفوناه حتى اتجه إلى عمق الغابة، ودخل في الأدغال المتشابكة، ففكرنا أن ما من داع لأن نتوغل أكثر في الأدغال، وأن علينا العودة لإخباركم بوجود الرجل الغريب، فهذا هو ما ذهبنا لأجل التأكد منه"، صمت كادوس، ومرت لحظات أطبق فيها الذهول على الجمعِ الجلوس، والمترقبين الوقوف، ثم استأنف كادوس: "أنا أعلم أن هذا الأمر يصعب تصديقه أيها القائد، لكني أعرف آثار أقدام الجميع، وأؤكد لكم أن الأثر الذي وجدته في الغابة ليس لأي منا.. ثقوا من ذلك".

ثم جلس كادوس بين الجالسين وتنفس بعمق كمن ألقى عن كاهله حملًا ثقيلًا.

سرت بين الجمع همهماتٌ حيرى، فقد كانت ثقتهم كاملة في قدرة كادوس على معرفة الأثر، ولكنهم في ذات الوقت لا يقوون على تصور وجود بشر

غيرهم، وما يزيد الأمر سوءًا هو ترقبهم لعقاب النهر بعد تجاوزهم للشلال، ونزولهم إلى الأرض المحرمة.

أدرك سادر اهتزاز أفراد المجموعة، فوقف وقال بثقة: "حتى لو كان هناك غرباء، فهل هم أشد خطرًا أم الحيوانات المفترسة التي نستطيع مواجهتها وطردها أو قتلها؟ عليكم أن تطمئنوا، وسنرى ما يجب علينا فعله ونقوم به، وسيكون الجميع بخير."

قال ظريف: "منذ وصولنا إلى هذه الأرض المغرية أيها القائد وأنا أنتظر ظهور المنغصات، وها قد بدأنا، وإذا كان هناك رجل غريب في الغابة فإياكم والظن أنه وحيد هناك يكلم الحيوانات كما كان مادو الحاذق يقول".

قال بومبا: "ماذا تعني يا ظريف؟"

أجاب ظريف: "أعني أن الغابة لا تُنبت البشر".

قال سادر: "إن ظريف مُحق؛ إذا كان هناك رجل غريب في الغابة فمن المؤكد أن الأرض لم تنبته، ولكن حتى لو كان هناك غرباء، إياكم أن تُسّلِموا أنفسكم للفزع، فنحن عشرات الرجال الأشداء، وإذا كان هناك غرباء ويريدون إيذاءنا، فسنواجههم ونمزقهم أوصالًا. والآن ليعد كل منكم إلى حيث كان، ولنكن جميعًا متأهبين لأي طارئ، ومن أراد منكم القدوم إليَّ هذا المساء لنتشاور في هذا الأمر فليأتِ".

بعد الغروب جاء عدد من رجال المجموعة تلبية لدعوة سادر، ووجدوه يجلس مع ابنه ميراك، وزوجته ناشا، ورفيقه الأقرب هميان، وكان الذين جاؤوا هم الحكيم، وبومبا، ومادو الحاذق.

قال لهم سادر: "لقد فكرت بأن علينا ألا نكتفي بالحارس الواحد الذي اعتدنا تناوب القيام بعمله لحماية النيام من الضواري، فقد اختلف الحال الآن، ولا مناص من زيادة عدد الحراس."

قال مادو: "إن كان هناك غرباء، فلماذا نظن أنهم خصومنا؟"

فأجاب سادر بشيء من الحزم: "اسمعني جيدًا يا مادو، لم يعد هناك وقت لمثل هذه الأفكار التي نُزجي بها الوقت حين نكون مطمئنين، ولقد زدتَ الناس خوفًا على خوفهم بحديثك ذاك عن الغرباء الذين لا يتكلمون مثلنا، نعم أعترف لك بأن أحاديثك تستهويني، لكن ما كان ينبغي لك قول ما قلتَ في وجود البعض، لقد كان وقعه شديدًا عليهم، خاصة الأطفال.. لا بد أنك تعلم مدى وُدي لك يا مادو، لكن أوقات الخطر تعوزها أشياء أخرى غير التخيلات".

ثم استرسل سادر: "أعرف ما يدور في عقولكم وإن تَحشَّمتم مني عن الجهر به، لكن اعلموا أنكم لو لم تتجاوزوا الشلال وتنزلوا إلى هذه الأرض، لكان مصيركم الهلاك، ولم يسعني أن أترك هذا يحدث وفيني قلب يدق، وبدلًا من تحميلي الملام، فكروا معي فيما يجب علينا عمله الآن."

قال بومبا: "لا أرى إلا ما سبق لك قوله يا سادر؛ وهو أن نقيم الحراسات المتناوبة."

قال مادو الحاذق: "اعذرني يا سادر على صراحتي، ولكن إن كان هناك غرباء فالحراسات لن تكفي لوحدها.. وما يجب أن نقوم به هو معرفة مكان تواجد الغرباء عوضًا عن انتظارهم؟"

قال سادر: "هل تقصد أن ندخل الغابة جميعنا ونبحث عن الغرباء لنهاجمهم؟"

أجاب مادو: "أعني أننا إذا تمكنا من معرفة مكان الغرباء، فسنستوثق أولًا أن هناك غرباء، ثم سيكون بعدها في مقدورنا أن نقيم عليهم رقيبًا ليعرف لنا ما هم؟ كم عددهم؟ ماذا يفعلون؟ هل يتنقلون كما كنا نفعل، أم يقيمون في هذه الأرض كما نقيم الآن؟ وغير ذلك، فنستطيع حينذاك أن نتحرك على بينة وكما ينبغي".

قال سادر وقد بدا إعجابه بما سمع: "أحسنت يا مادو." ثم أضاف بسرعة: "لن يذوق أحد هنا للاطمئنان طعمًا حتى نجد الغرباء، ونعرف عنهم كل ما نستطيع معرفته، وإلى أن نقوم بذلك يجب أن نتراجع قليلًا عن هذا المكان الذي نقيم فيه؛ أي نعود صعودًا بمحاذاة النهر، لأنه لو كان هناك غرباء، فليس لدي شك في أنهم قريبون من هذا الماء الكبير.. لقد سرنا من منطقة الشلال ولم نر لبشرٍ أثرًا حتى وصلنا إلى هذا الماء الكبير".

وتنفيذًا لأفكار المساء، انتدب سادر في الصباح كادوس خبير آثار الأقدام، للبحث عن آثار أقدام الغرباء في الغابة، وأن يتعقبها إن وجدها، ليعرف كل ما يمكنه معرفته عنهم، وسأل سادر كادوس كم يريد من المرافقين معه، فأجاب بأنه لا يريد من أحدٍ أن يرافقه إلا ابنه؛ مبررًا بأن كثرة العدد ستجعل تحركهم محسوسًا، وبدلًا من أن يجدوا الغرباء، فإن الغرباء هم من سيجدونهم، وأن ابنه سريع جدًا، يسابق الريح إن عدا، فإذا ما طرأ أمر يستلزم سرعة إبلاغه لسادر، فإن ابنه سيكون خير من ينهض بهذا الواجب، فاستحسن سادر رأيه، وأخبره بأنه سيطلب من الجميع التراجع بمحاذاة النهر قليلًا، وأنهم سيقيمون هناك حتى يأتيهم هو وابنه بالخبر اليقين.

وهكذا تراجعت المجموعة البشرية عن البحر صعودًا بمحاذاة النهر ما يقارب مسيرة أربع ساعات، قبل أن يتوقفوا في مكان استحسنوه للمقام.

في تلك الأثناء استهل كادوس وابنه بحثهما عن آثار الأقدام من ذات الموقع الذي وُجدت فيه آثار الرجل الغريب، وبتوصية من سادر تجاهلا آثار ذلك الرجل باحثين عن آثار أخرى، ولم يطل بحثهما حتى وقعا على آثار الرجل ذاته، لكن كادوس عرف بخبرته أن الأثر حديث جدًا، ففكر في اقتفائه وإن خالف توصيات سادر، لكن ابنه همس له بأنه سمع حفيفًا بين الأشجار، فتواريا في دغل قريب، وإذا بخمسة رجال يقتربون بحذر وبطء وهم يتلفتون يمنة ويسرة، وقبضاتهم مشدودة على رماحهم، ثم قال أحدهم بصوت منخفض: "هل أنت متأكد من أنهم غادروا ولم يتركوا أحدًا." فرد عليه أحد رفاقه: "نعم، ومعهم أطفالهم ونساءهم أيضا." ثم أخذ الرجال الخمسة يتقدمون إلى خارج الغابة، وكادوس وابنه في إثرهما عن بعد.

وقف الرجال الخمسة حيث كانت تقيم المجموعة بين الغابة والنهر، بينما عيون كادوس وابنه ترصدهم من طرف الغابة، ولم يلبث الرجال الخمسة أن توجهوا صوب النهر، وسبحوا إلى الضفة الغربية، وعندما خرجوا وأخذوا بالابتعاد غربًا أسرع كادوس وابنه بعبور النهر خلفهم إلى الضفة الغربية المجهولة بالنسبة لهما ولكل مجموعتهما، لحداثة عهدهم بهذه المنطقة.

وراح كادوس وابنه - تساعدهم النباتات على التخفي - يتعقبان الرجال الخمسة وهم يبتعدون عن النهر غربًا، قاطعين منبسطًا يساير النهر ويكتسي نباتات خضر، ويقع في جانبه الغربي صفٌ من التلال المتلاصقة تسُد الأفق، وصعد الرجال الخمسة التل الأوسط ونزلوا إلى الجهة الأخرى، فصعد كادوس وابنه إثرهم إلى قمة التل، واستشرفا المنطقة الواقعة وراء التلال، فإذا هي سهل فسيح، وذُهلا من وجود أكواخ تتناثر عليه، وشاهدا الرجال الخمسة يتجهون صوب أكبر هذه الأكواخ في وسط السهل.

وبينما كان كادوس وابنه ذاهلين مما اكتشفاه، ويتأملان السهل والأكواخ، إذا بأربعة رجال يداهمانهما من الخلف ويطوقانهما، مصوبين رماحهم نحوهما.

وصاح أحد الأربعة قائلًا: "ألقيا رمحيكما وإلا قتلناكما" فاستجاب كادوس فورًا وألقى رمحه، وأمر ابنه أن يحذو حذوه. وكان كادوس يدرك أن مَرَدّ استسلامه السريع لم يكن عن خَوَرٍ ولا عن خشية مجابهة الرجال الأربعة، وإنما لخوفه على ابنه، مدفوعًا بحب الولد المتمكن في النفوس.

اقتاد الرجال الأربعة كادوس وابنه إلى السهل الفسيح، وصوب ذات الكوخ الكبير.

دخل الأربعة يسوقون أسيريهم إلى داخل الكوخ، وكان هناك عدد من الرجال يجلسون في الداخل، بينهم رجل في عقده الرابع يجلس في صدر المكان، ولم يكن ذلك الرجل أسنهم، إلا أن من يلقي عليهم نظرة يعرف أنه قائدهم، أو الأهم بينهم.

فوجئ جميع من كانوا داخل الكوخ، وسكت الرجل الذي كان يتحدث، وهو أحد الخمسة الذين كان كادوس وابنه يتعقبانهما، وقبل أن تند عن أي من الجالسين كلمة، بادر أحد الأربعة بالقول موجهًا كلامه إلى الرجل الجالس في صدر المكان: "أيها القائد رابون، لقد أمسكنا بهاذين الغريبين فوق التل الأوسط.. كنا نترصد الغرباء عند النهر فرأينا هذين يعبران النهر ويتعقبان رفاقنا الذين أرسلتهم إلى الضفة الشرقية ليأتوك بخبر الغرباء، فتبعناهما، وحين وصلا إلى التل وأشرفا على المكان أمسكنا بهما دون أدنى مقاومة منهما.. إن هؤلاء الغرباء ضعفاء أكثر مما كنا نظن".

عمّ الذهول المكان، وراح كل الجالسين يحملقون في كادوس وابنه وأعينهم مفتوحة إلى آخرها.

قال الرجل الذي كان يتحدث قبل إدخال كادوس وابنه إلى الكوخ: "إن الغرباء كُثر، وقد تبين لنا أنهم غادروا المكان جنوبًا ملتزمين شط النهر، ولا بد أن هاذين الاثنين قد تخلفا عنهم" ثم نظر الرجل نحو ابن كادوس وأضاف: "إن الصبي الذي كِدت بالأمس أن أمسكه بعمر هذا الصبي".

انتفض الرجل الجالس في صدر المكان والذي يدعونه القائد رابون من مكانه واقفًا، وقال مُجيبًا محدثه مع أنه ينظر نحو كادوس وابنه: "لقد صَدَّقْتُك بالأمس وصَدَّقتُ جميع رفاقنا الذين رأوا الغرباء عندما توجهوا إلى النهر يريدون العبور إلى الضفة الأخرى، ولكن كيف يمكن أن يحدث كل هذا؟ من أين جاء هؤلاء الغرباء؟ إنهم يبدون بشرًا مثلنا تمامًا!!" فرد ذات الرجل: "أنا كنت أظن أنهم مثل العجماوات لا يتكلمون، حتى سمعت الصبي الذي وجدته في الغابة يصرخ مناديًا والده: "أبي، أبي" فعرفت بأنهم مثلنا."

قال القائد رابون متوجهًا إلى كادوس وابنه بالسؤال: "من أين أتيتم أيها الغرباء؟"

لم ينطق كادوس بكلمة، فقال رابون بحنق: "تكلما وإلا حطمت رأسيكما." فقال كادوس: "لقد أتينا من أرض تقع عند أعالي النهر وراء الشلال، ورأى أحد صبيتنا بالأمس رجلًا غريبًا في الغابة، فارتأى قائدنا أن أذهب أنا و.. أنا وهذا الصبي لنأتيه بيقين الخبر، ووجدنا خمسة رجال في الغابة، وتبعناهم حتى وصلنا التلال المشرفة على هذا المكان، ولم نشعر إلا بالأربعة هؤلاء يحيطون بنا، ثم اقتادونا إليك".

قال رابون: "كم يبلغ عددكم؟" فأجاب كادوس: "ربما كنا مائتي رجل".

-"وأين هم الآن؟"

-"لقد غادروا صاعدين بمحاذاة النهر".

-"إلى أين؟"

-"لا نعلم، لكن أظنهم لم يبتعدوا كثيرًا".

-"ما الذي يجعلك تظن ذلك؟"

لم يُجب كادوس عن السؤال، فنهره رابون بعنف وقال: "إذا عدت للصمت أو كذبت علي فستندم" فاستأنف كادوس كلامه قائلًا: "أظن أنهم لن يبتعدوا كثيرًا لأن هذه الأرض وفيرة الطعام، ولا نفكر بالابتعاد عنها لولا خشيتنا من وجود بشر غرباء يعيشون فيها".

قال رابون لرفاقه بَعَجَب مع نصف ابتسامه: "يسمينا الغرباءُ غرباء!"

ثم قال للرجال الأربعة الذين جاؤوا بكادوس وابنه: "خذوهما إلى كوخي الجديد ريثما نرى ما نصنع بهما".

اقتاد الرجال الأربعة كادوس وابنه إلى داخل كوخ قريب، ووقف أحدهم على مدخل الكوخ للحراسة، بينما غادر الثلاثة الآخرون.

أدار كادوس بصره داخل الكوخ فلم يجد به منفذًا، وراح يفكر كيف يمكنه الخروج من هذا المكان كي يحذر المجموعة أن هناك جماعة كبيرة من الغرباء، وأنهم قد عرفوا بوجود المجموعة وعرفوا أنها ستقيم على النهر في مكان غير بعيد، وأن من غير المستبعد أن يقوم الغرباء بمهاجمة المجموعة.

همس كادوس لابنه بما يجول في خاطره، وأنه يتوجب إيصال النذير إلى المجموعة، فأجابه ابنه همسًا: "ولكن كيف يمكننا الخروج وهناك رجل غريب يجلس على مدخل الكوخ ممسكًا رمحه" فقال كادوس: "أنت أقدر مني على النهوض بهذا الواجب لسرعتك وخفة حركتك، ثم إني أريدك أن تنجو بنفسك" تساءل الصبي: "ولكن كيف أسرع إذا لم أخرج من هنا أولًا؟" فهمس كادوس بثقة: "دع ذلك علي، ولكن تحلّ بالشجاعة والصبر، واعلم أني قد أتخلى

راضيًا عن حياتي كي تحيا أنت وتحذر المجموعة" صمت كادوس ورمق الحارس ثم عاد يهمس لابنه قائلًا: "استجمع قواك يا بُني، وحين أطلب منك الانطلاق، انطلق بسرعتك التي عهدتها.. تستطيع أن تجد المجموعة يومك هذا؛ فقد قال لي سادر بأنهم سيتراجعون بمحاذاة النهر إلى مكان غير بعيد، فالزم النهر حتى تجدهم. وهناك أمر مهم أريده منك.. وهو أن لا تفكر بما يحدث لي، هل وعيت قولي؟ لا تفكر بما يحدث لي".

-"نعم يا أبي فهمت".

قبَّل كادوس ابنه واحتضنه، فرمقهما الحارس وقال بعجرفة وجفاء: "بماذا تتهامسان، هل أترك لكما المكان حتى تتحدثان كما يحلو لكما؟"

قال كادوس: "أنت رجل أحمق".

-"ماذا قلت؟ كيف تجرؤ أيها الحقير!"

- "أحمق وجبان أيضًا".

نهض الحارس وتقدم داخل الكوخ مزمجرًا وهو يهز رمحه في يده استعدادًا لقذفه، فقال كادوس: "إنك لا تخيفني أيها الجبان" قذف الحارس الرمح فراغ منه كادوس بمهارة، ليمرق الرمح بجواره ويعبر من خلل الجدار الخشبي إلى خارج الكوخ، فاستدار الحارس ليخرج، يروم استعادة رمحه، فقفز كادوس عليه وأمسك به، وسقط الرجلان على الأرض يصطرعان، فصاح كادوس بابنه: "انطلق الآن" ولكن الصبي كان مترددًا في ترك أبيه وهو يقاتل هذا الرجل وفي هذا المكان، فما كان من أبيه إلا أن صاح به: "أقول لك انطلق الآن، هيا" فأسرع الصبي بالخروج من الكوخ مطلقًا ساقيه للريح، وبدا وكأنه يطير فوق سطح السهل الأخضر، ميممًا شطر التل الأوسط، فصرخ الحارس:

"أدركوا الصبي، إنه يهرب، إن الصبي يهرب" وكادوس يضربه على وجهه ليسكته، لكنه واصل الصراخ، وواصل كادوس ضربه.

وصل الصبي سفح التل وبدأ بصعوده، والتفت فرأى الكثير من الرجال يُهرَعون إلى الكوخ وهم يحملون رماحهم، وواصل الصبي صعود التل حتى بلغ قمته، وشاهد من هناك عدد من الرجال يسحبون والده إلى خارج الكوخ، فهاله ما يرى وتسمَّر في مكانه، ولاحظ أن الحارس سيء الطالع يشير نحوه، فإذا بعض حاملي الرماح يعدون نحو التل الذي يقف عليه.

أخذ الصبي يطيل النظر إلى والده غير آبه بالرجال الذين وصلوا أسفل التل وبدأوا بتسلقه نحوه، وتذكر أوامر والده بعدم الاكتراث لما يحدث له، وأن يستمر في الهروب بأقصى ما تعطيانه ساقاه، فحزم أمره وعزم على تَرْكِ والده لمصيره، والنزول من التل والتوجه نحو النهر، لكنه أعاد النظر مرة أخيرة نحو والده الممدد على الأرض، فغامت عيناه بالدمع، ولوّح بيده لوالده، ثم استدار إلى الجهة الأخرى وانحدر من قمة التل، وراح يعدو بسرعة يزيد منها اندفاع جسمه على المنحدر، فوصل السفح وكأن قدميه لا تلامسان الأرض، مواصلاً العدو حتى وصل النهر، فقفز إليه، وفي أثناء سباحته التفت فرأى أن مطارديه وصلوا قمة التل وتوقفوا، مكتفين بالنظر إليه وهو يصل إلى الضفة الأخرى، وأدرك أنهم يئسوا من اللحاق به، وأنه قد نجا.

المواجهة

لم يُضيع الصبي الوقت، وراح يهرول بمحاذاة الشط ليلتحق بالمجموعة، تستحثه رغبته في طلب العون لوالده، وتحدوه وصية والده بتحذير المجموعة من غرباء منافسين، وقد كانوا يسمون العدو منافس، والعدَاء تنافس.

وصل الصبي إلى حيث تقيم المجموعة، وسأل أول من صادفه، وكان أحد رجال المجموعة: "أين سادر؟ أين سادر؟"

فقال الرجل: "لماذا تأخرتما كل هذا الوقت... أين كادوس؟"

-"قل لي أولًا أين سادر".

ذهب به الرجل إلى حيث كان يجلس سادر وصَفِيُّه هميان وقال: "لقد عاد ابن كادوس يا سادر".

نهض سادر بلهفة وقال: "لقد كنا قلقين بسبب تأخركما، أين والدك؟"

-"القصة طويلة أيها القائد وسأرويها لك، لكن هناك مجموعة كبيرة من الغرباء قد يكون عددهم ضعف عددنا أو أكثر، وهم في ذلك المكان الذي ارتحلنا منه، ولكنهم يقيمون على الضفة الأخرى، يقيمون وراء التلال الواقعة في الغرب، وأمسك بنا بعض أولئك الغرباء حين كنا نتتبع خمسة منهم، وتمكنت أنا من الهرب، لكن والدي لا يزال عندهم، وقد لحقه منهم أذى كبير، لأنه أشغلهم كي أتمكن من الهرب وأنذركم، فهو يظن أن الغرباء سيهاجمونكم. وقد سألونا عن عددنا، وعرفوا أنكم لم تبتعدوا كثيرًا عن المكان الذي كنا نقيم فيه".

قال سادر وهو يمسح بكفه على رأس الصبي: "لا عليك، لا عليك أيها الشجاع، سوف يكون أبوك بخير، أعدك بهذا.. أما الآن فعليك أن تستريح، لا بد أنك متعب".

التفت سادر إلى الرجل الذي جاء بالصبي وقال: "أُدْعُ لي أنت وهميان كل الرجال الآن إلى هنا".

خلال دقائق كان العشرات يتقاطرون إلى حيث يجلس سادر، ونبأ إمساك مجموعة كبيرة من الغرباء بكادوس قد سرى بين أفراد المجموعة كالبرق، فصعق الكثيرون..

وقف سادر وقلَّب ناظريه في الحاضرين وقال: "لقد تأكدنا بأن هناك غرباء يقيمون غربي النهر وراء التلال، وأغلب الظن أنهم الآن يبحثون عنا، ولذلك فإن أول ما يجب علينا فعله هو تأمين النساء والأطفال، وأرى أن يتحركوا مواصلين المسير بمحاذاة النهر، وأن لا يتوقفوا إلا بقرب الشلال، ويصحبهم عشرة رجال لحمايتهم.

أما نحن، فمن هذه الليلة، بل من الآن، يجب أن نكون متنبهين ومتأهبين، وأن نظل متقاربين على صعيد واحد، فتسهل علينا إقامة الحراسة من حولنا، وحماية بعضنا بعض، وأكرر أن علينا أن لا نفارق رماحنا وهراواتنا، ننام على هذا الحال ونصحو عليه".

قال ميراك بن سادر: "ماذا يريد منا هؤلاء الغرباء يا أبي؟ خير هذه الأرض غزير ويغنيهم عن لحومنا، فلماذا إذن يهاجموننا؟ أم أنهم ينظرون إلينا كمنافسين؟"

قال الحكيم رفيق النهر: "أحسنت أيها الفتى، وإن كانوا يحسبوننا منافسين فما الذي جعلهم يظنون ذلك؟"

فرد سادر: "إنهم ينظرون لنا كمنافسين، لم يعد في ذلك شك.. لقد حاولوا الإمساك بابن بومبا في الغابة، والآن يسألون كادوس عن مكاننا وعددنا؟" ثم أضاف سادر بصوت القائد الواثق: "لقد فكرتُ بأن نبتعد عنهم مسافة أكبر،

كمسير يوم أو يومين، فنبقى في هذه الأرض، وفي ذات الوقت نكون قد ابتعدنا قليلًا عن الغرباء، ثم عدلت عن الفكرة لأننا سنظل عرضة لشرهم طالما بقينا في هذه الأرض الممتدة من الشلال إلى الماء الكبير.. إنها أرض مليئة بالخير، كثيرة الثمار، وافرة الصيد، وفوق ذلك فإن لها هواءً لطيفًا، ولم يعد لدي شك أن كل ذلك هو ما جعل الغرباء في ما مضى يختارون هذه الأرض لمُقامهم، وأن كل ذلك هو ما يدفعهم الآن لإبعادنا عنها. ويقول ابن كادوس بأن عددهم ربما يفوق ضعف عددنا، وأنهم باتوا يعرفون ذلك، وأظن أن هذا سيغريهم باستعجال مهاجمتنا.. هذا هو ما كنا سنفعله لو كنا في مكانهم.

أما إذا طال بقاؤنا هنا دون أن يهاجمونا، فسنتوجه إلى حيث ستقيم النساء والأطفال، ومن هناك نرى لنا رأيًا آخر؛ فلا يسعنا ترك النساء والأطفال مدة طويلة تكفي الغرباء لإدراك تدبيرنا، وتجاوزنا ومهاجمة النساء والأطفال".

وقف الحكيم على مهل متوكئًا على عصاه التي لا تفارق قبضته، وقال: "أما وقد جزمت أيها القائد بأنهم منافسون، وأنهم قد يهاجموننا، فليس لنا إلا أحد خيارين، إما أن نبتعد صاعدين من حيث جئنا إلى ما وراء الشلال، إلى أن نقتنص فرصة أفضل للعودة، وإما.."

قال سادر مقاطعًا: "لن نعود إلى حيث بلغنا حافة الهلاك يا حكيم، فتجاوز هذا الخيار إلى ما بعده".

قال الحكيم مستأنفًا: "وإما أن نستعد من هذه اللحظة لقتال الغرباء قتالًا لم يُشهد مثيله قط، لأنه سيكون قتالًا نشارك جميعنا فيه، ولقد كنت أودُّ أن نتجنبه لأن الدماء في قتال كهذا ستنزف غزيرة، ولا نعلم بعدها لمن ستكون الغلبة، ولا نعلم من سيبقى ومن سيأخذه النهر العظيم".

قال سادر: "لم يتبق لنا إلا هذا الخيار حتى لو كنا سنموت جميعًا في القتال، فهو أعز وأكرم من الموت جوعًا" ثم قال بصوت قوي: "أيها الرجال، إن هذه الأرض قد أنقذتنا من الجوع، ولن نتخلى عنها ونسلم أنفسنا للهلاك جوعًا، بل الهلاك جُبنًا، حتى لو تشققت من فوقنا السماء، وسقطت الشمس والقمر على رؤوسنا".

صمت سادر للحظات وقد أشعلت كلماته قلوب الرجال حماسة ثم أضاف: "فهل تختارون البقاء في هذه الأرض والدفاع عن أنفسكم أيها الشجعان؟" فتعالت الصيحات: "نعم، نعم، نعم".

لم تكد الشمس تميل عند الزوال حتى تحرك جمْع النساء والأطفال كما جرى الاتفاق، بينما رجال المجموعة كلٌ منشغل بإعداد سلاحه للقتال، وطلب سادر من ابنه ميراك وصفيه هميان أن يقوما بإعداد أكبر عدد يمكنهما إعداده من الرماح، ليحتاط بها إن دعت الحاجة. وقد كان رجال المجموعة معتادين على صناعة الأسلحة، ويستخدمونها في العادة للصيد ومواجهة الضواري، وقد كانوا يقومون بتهيئة أسنة الرماح من الحجارة، وذلك بتكسيرها حتى تصير مدببة مرهفة الحواف، ثم يربطونها على رؤوس القنا بأربطة من الجلد، وقد يربطونها ببعض أنواع لحاء الأشجار، وربما جعلوا للرماح رؤوسًا من العظام. وكانوا يصنعون الهراوات الخشبية، وهي تشبه العِصِيّ إلا أنها مخروطية الشكل، مستغلظة عند نهايتها ومستدقة عند مقبضها.

وحين انحدرت الشمس نحو مغربها مؤذنة بنهاية النهار، كان رجال المجموعة قد فرغوا من جهاز أسلحتهم، واجتمعوا في مساحة صغيرة تلبية لتوصيات قائدهم، الذي راح يدور حولهم ليتأكد من تواجدهم جميعًا هناك، ثم

طلب منهم التزام الصمت، وأنه إذا كان على أحدهم الكلام فلا يتكلمن إلا همسًا.

تنزلت عليهم عتمة الليل رويدًا رويدًا، يصدّها بلطف ضوء هلال القمر، فلم تنعدم الرؤية. وكان سادر قد كلف مادو الحاذق والرجل القوي بومبا بترتيب نوبات الحراسة، وتقدير أوقاتها اعتمادًا على حركة القمر؛ فقد كانوا يقدرون الوقت في الليل بحركة القمر والنجوم، وفي النهار بحركة الشمس وذلك برصد تحرك ظلال الأشياء.

تم ترتيب نوبات الحراسة بحيث تكون كل نوبة حراسة مكونة من أربع مجموعات، على كل جهة من الجهات الأربع مجموعة، وكل مجموعة تتألف من أربعة رجال.

تناوب الرجال على الحراسة، وفي هزيع الليل الأخير كان أفراد المجموعة المناط بها حراسة الجهة الغربية، أي جهة النهر، يتجاذبون خيط الحديث بصوت خفيض، وكان ظريف من مجموعة الحراسة تلك، فقال لرفاقه: "إن سادر يقول أنه لا يريدنا أن نموت جبناء، ويفضل أن نموت شجعانًا، ويبدو أن هذا قد أعجبكم، لكن ما هو الشجاع في ظنكم؟ هيا قولوا لي" فأجابه أحد رفاقه الثلاثة: "ألا تعرف ما هو الشجاع؟! إنه من لا يخاف" فقال ظريف: "الطفل الصغير الذي لا يزال يحبو لا يخاف شيئًا، وقد يواجه الأسد باسمًا جذلًا، وما ذاك إلا لأنه ناقص العقل، فهل تريد أن تقول أن الشجعان هم ناقصو العقول" ضحك رفاق ظريف الثلاثة وهم يكتمون ضحكهم، ثم قال أحدهم: "إذن فالشجاع ليس من لا يخاف، بل من يخاف الشيء ومع ذلك يواجهه".

قال ظريف: "إذا كان الشجاع هو من يواجه شيئًا وهو يعلم أنه مخيف وخطير، إذن فهو لا يختلف عن الأحمق في شيء، واعلموا طالما والأمر هكذا،

بأني لست شجاعًا، ولا أريد أن أكون، فأنا لا أتعجل الموت.. وأنتم كذلك لا أظنكم.."

قاطع ظريف نفسه قائلًا بصوت أكثر انخفاضًا: "هل سمعتم شيئًا؟" فأجابه رفاقه بالإيجاب.

كان هناك حفيف خفيف من جهة النهر، فتحرك ظريف ورفاقه بهدوء وقاماتهم محنية لاستكشاف مصدر الصوت، فإذا ما يشبه هيئة شخصين قادمين من جهة النهر. همس ظريف لرفاقه الثلاثة: "لنختبئ بين هذه النباتات، حتى إذا اقتربوا انقضضنا عليهم".

وكمن الأربعة بين النباتات حتى تجاوزهم الشخصان اللذان كانا يتقدمان بحذر وببطء شديد وكل منهما يحمل رمحًا، فعاجلهما ظريف ورفاقه من الخلف، وانهالوا عليهما بالهراوات فوقعا على الأرض، وأوسعوهما ضربًا وقد علا صراخهما، فصاح ظريف: "يكفيهما هذا، ولنأخذهما حَيَّين إلى سادر والآخرين لنرى ماذا نفعل بهما" فأجاب ظريف أحد رفاقه وهو يلتقط الرمحين الواقعين على الأرض قائلًا: "إذن جُرُّوا الغريبين إلى هناك وأنا سأبقى هنا لأراقب، فلربما كان وراءهما آخرون".

أخذ الثلاثة يسحبون أسيريهم إلى حيث كان ينام أفراد المجموعة، وتحديدًا نحو سادر.

هَبَّ سادر واقفًا حين سمع الصراخ وهو يحمل هراوته في يساره ورمحه في يمينه، وقال: "ماذا هناك؟" فأجابه ظريف: "لقد أمسكنا بهاذين الغريبين عند الشط" وأيقظ صراخ وأنين الأسيرين رجال المجموعة، وأخذوا بالتجمع عند سادر.

بعد أن روىٰ ظريف تفاصيل ما جرىٰ، أفلت سادر هراوته من يساره، وانحنىٰ علىٰ أحد الأسيرين وأمسكه من شعره، وقال: "ماذا كنتم تفعلون أيها الغريب؟" فلم يحر الرجل جوابًا، فقال له سادر بحدة: "هل معكما أحد؟ قل وإلا طعنتك الآن بهذا الرمح" ووضع سنان رمحه علىٰ صدر الرجل، فبادر الرجل بالقول: "سأخبرك، سأخبرك بكل شيء" ثم قال بصوت يرتجف: "لقد أرسَلَنَا القائد رابون لنعرف أحوالكم، ولنرىٰ كيف يمكننا أخذكم بغتة." فقال سادر: "هل رابون اسم قائدكم؟ "

- "نعم"

-"وأين هو الآن؟"

-"هو وبقية الرجال ينتظرون علىٰ الجهة الأخرىٰ من النهر، ولكنهم بعيدون عن الضفاف حتىٰ لا تشعرون بهم".

فقال سادر بصوت خفيض هذه المرة: "وكم عددكم؟"

-"قرابة الخمسمائة".

-"لماذا تريدون مهاجمتنا؟"

-"لأنكم تقيمون علىٰ أرضنا.. هم يقولون ذلك، لستُ من يقوله".

سكت سادر برهة ثم قال: "كيف حال كادوس؟ الرجل الذي أمسكتم به؟"

-"إنه بخير، وقد اصطحبناه معنا".

-"لماذا اصطحبتموه معكم".

عاود الأسير السكوت فنهره سادر: "تكلم وإلا قتلتك".

-"رابون يظن أنه سيستفيد منه ضدكم".

-"هل أنت متيقن من أنه بخير؟"

-"نعم".

-"الويل لك لو كنت تكذب".

-"لقد صدقتك القول".

قال سادر لبومبا الواقف بقربه، والذي كان لا يزال يفرك عينيه من أثر النوم، وكأنه يريد أن يتثبت مما ترى عيناه: "قيدوهما يا بومبا، وليحرسهما أحدكم" ثم أضاف للحاضرين: "ربما يكون هذان الغريبان يكذبان، وهما مقدمة لآخرين يتبعونهما لأخذنا على غفلة تحت جنح الظلام، ولهذا سنضاعف الحراسة حتى طلوع الصباح، وظهور ما تخفيه عتمة الليل".

لم يطرق النوم بعدها لسادرٍ جفنًا، ولا لجُل رفاقه، حتى تباشير الفجر، واطمئنوا أكثر حين أخذت أنوار الشمس من المشرق تطوي سريعًا ظلام الليل نحو المغرب.

ولم يكتمل شروق الشمس إلا وقد وقف كل رجال المجموعة على حافة الشط يمدون أبصارهم نحو الضفة الأخرى، إلى سهل أخضر فسيح تقع في أقصاه بعض التلال.

قال ميراك بن سادر: "انظروا، انظروا إلى ذلك التل".

كانت هناك أعداد غفيرة من الرجال تسيل من قمة أحد التلال المطلة على السهل الأخضر، ثم توقفت عند سفح التل، فاقترب سادر من النهر وخطا فيه بضع خطوات ليظفر برؤية أوضح، ثم التفت ناحية رفاقه وقال: "إن عددهم كما قال الغريبان قرابة الخمسمائة" ثم خرج من الماء وأضاف بثقة: "ومع ذلك لا تظنوا أن كثرتهم ستغني عنهم شيئًا، فقد اهتديت إلى فكرة ستعيننا على التغلب عليهم.. ولكن يتوجب علينا أولًا أن ننقذ كادوس".

وطلب سادر من بومبا فك وثاق أحد الأسيرين وإحضاره، فجاء به بومبا دون إبطاء، فقال له سادر: "اسمع أيها الغريب، سنسمح لك بالعودة إلى رفاقك، إنهم هناك عند سفح ذلك التل، وقل لقائدكم... لقد نسيتُ اسمه".

-"اسمه رابون".

-"نعم رابون، إنه اسم عجيب! على كلٍ، أخبره بأن رفيقك الآخر بخير، وأننا سنسمح له أيضًا بالعودة إليكم إذا تركتم كادوس يعود إلينا، أعني رفيقنا الذي أمسكتم به".

قال الرجل وهو يتلعثم رهبةً وفرحًا: "أجل، أجل سأفعل، سأقول له كل ما تقول" أضاف سادر: "وقل له أننا حين نرى كادوس يدخل النهر من الضفة الأخرى، سنسمح لرفيقكم في ذات الوقت بعبور النهر من جهتنا. هيا اذهب".

لم يكد سادر يكمل كلامه حتى انطلق الرجل يعدو كالغزال المذعور وهو يتلفت وراءه غير مصدق بأنه قد نجا، وقفز في النهر وراح يسبح بخفة ومهارة تحاكي مهارة الأسماك، وسط ضحكات سادر ورجال المجموعة.

على الضفة الغربية قبيل انتصاف النهار اقترب خمسة رجال من النهر، وأخذ أحدهم بالتلويح لسادر وصحبه على الضفة الأخرى، فإذا هو كادوس عن يساره رجلان، وعن يمينه رجلان، ووقف الخمسة عند حافة الشط.

فطلب سادر جلب الأسير وفك وثاقه، والسماح له بعبور النهر نحو رفاقه، وما أن بدأ الأسير بدخول النهر حتى سمح آسري كادوس له بعبور النهر كذلك.

أخذ الرجلان المحرران بالسباحة، ومرا بجوار بعضهما وسط النهر وكل منهما يتجه صوب رفاقه، والترقب يطبق على الضفتين، وحين اقترب كادوس من الضفة الشرقية تعالت أصوات الترحيب، وأُفعم الجو بالبهجة والحماسة،

ولمّا وضع خطوته الأولى خارج الماء تسابق الجميع لتحيته، وراحوا يأخذونه بالأحضان، وجاء دور ابن كادوس لتحية والده، فاحتضنه والده بحرارة وهمس في أذنه: "أحسنت يا بني، أنا فخور بك".

فأجاب الفتى الذكي: "وفخري بك كبير يا أبي، وسعادتي بعودتك عظيمة".

وفي الجو المشحون بالحماسة وصخب الفرحة بعودة كادوس اقترب سادر من الحكيم باسمًا وقال: "ألا ترى يا حكيم كيف بدلت عودة رجل واحد حالنا! انظر إلى البِشْرِ والقوة في وجوه الرجال، إن سعادتهم بعودة كادوس قد منحتهم عزمًا فوق عزمهم.. ومع أننا لم نزد الآن سوى رجل واحد، إلا أن عودته جعلتنا نشعر وكأننا قد زدنا ضعف عددنا رجالًا".

قال الحكيم: "صدقت يا سادر، وإن القائد البارع مثلك يعرف كيف يوقظ هذه القوة الخافية في الصدور، وهي القوة التي تجعل صاحبها يشعر معها بأنه قادر على تحطيم الصخور".

قطع مادو الحاذق على رجال المجموعة جو الفرح والترحيب بكادوس ورفع عقيرته قائلًا: "لقد بدأ الغرباء بالمسير نحونا".

رمى رجال المجموعة بأبصارهم إلى أقصى السهل على الضفة الأخرى وشاهدوا حشد الرجال هناك يتقدم نحوهم، ثم راحوا يلتفتون نحو سادر وكأنهم يسألونه ماذا يفعلون، فصاح وهو يرفع رمحه عاليًا: "تعالوا ورائي" واستدار مبتعدًا عن النهر، ويمَّم جهة الغابة ورجال المجموعة يتبعونه.

توقف سادر ورجال مجموعته عند طرف الغابة، وقال لهم: "علينا أن نبقى هنا وننتظر" والتفت إلى الحكيم خافضًا من صوته وقال: "أما أنت يا حكيم فلا تشاركنا في القتال، ليس لك طاقة على مثل هذا الأمر وقد كَبِرَت سنك".

قال الحكيم: "كما تشاء، وسأصلي للنهر العظيم كي يمنحكم العون".

قال ظريف الواقف بقربهما مبتسمًا: "الرأي يا حكيم أن لا تؤخر دعاءك حتى بدء القتال، بل تُعجل به ليقضي النهر على الغرباء الآن، فنُكفى عناء قتالهم".

أجاب الحكيم: "وما نفعك وما جدوى حياتك إن كان النهر سيعطيك كل ما أردت دون أن تقوم بشيء".

قال سادر بجدية وهدوء: "ليس هذا وقت المزاح يا ظريف" ثم رفع صوته وقال: "استمعوا إلي، أعلم أن أحدكم قد يحدث نفسه بشأن كثرة الغرباء، ولا ألومكم على ذلك، ولكن لدي تدبير سنتمكن به من التغلب على كثرتهم... إن وجودنا هنا عند طرف الغابة على مرأى منهم، مبتعدين قليلًا عن ضفة النهر، ومتيحين لهم مشاهدة تفوقهم في العدد بعد أن سمعوا عنه، سيغريهم بعبور النهر لمهاجمتنا، فإذا بدأوا بالعبور فعلينا أن نظل هنا ساكنين حتى تصل منهم إلى ضفتنا بضع عشرات، حينها ننقض نحن عليهم، فانتظروا مني إشارة بدء الهجوم، وهي حين تسمعونني أقول "عليكم بهم الآن"، عندها نهاجمهم جميعنا بسرعة وبقوة. ولكن قبل كل شيء على كل من لديه مقلاع حجارة أن يعطيني إياه الآن".

اجتمعت في الحال أمام سادر أكثر من عشرين مقلاعًا، فقال سادر متوجهًا بالحديث إلى بومبا: "أما أنت يا بومبا فحالما تسمع ذات الإشارة مني، عليك أن تنطلق ومعك ثلاثون رجلًا قم باختيارهم الآن، وهاجموا الذين لا يزالون في النهر متجهين إلى ضفتنا، فهم سيكونون فريسة سهلة لكم في الماء وهم يسبحون، غير قادرين على تحاشي ما تقذفونهم به، وغايتنا من ذلك هي منع وصول المزيد منهم إلى ضفتنا حتى نفرغ من القضاء على من وصلوا أولًا، واحرص على إصابة أكبر عدد منهم، وتستطيعون استعمال مقاليع الحجارة هذه

إلى جانب الرماح.. هيا اختر ثلاثين رجلًا، وخذ هذه المقاليع، وخذ الرماح الجديدة التي أعدَّاها هميان وميراك".

قال هميان: "هيا يا بومبا اختر رفاقك الثلاثون، وتعالوا ورائي لأعطيكم الرماح، إنها هنا بقربنا في الغابة".

قال سادر: "أحسنت" ثم رفع صوته قائلًا: "انتظروا مني إشارة بدء الهجوم".

على الضفة الأخرى كان الطرف الآخر قد تأكد له تفوقه العددي، ولم يطيقوا مواصلة المرابطة عند ضفاف النهر محدقين في عدوهم الذي تراجع إلى أطراف الغابة، فحدث ما قَدَّرَه سادر.. قرر زعيمهم رابون عبور النهر، وقدَّر أن من الأفضل لهم عبور النهر من مكان آخر غير المكان المقابل لعدوهم، فمشوا على ضفاف النهر إلى مكان آخر يبعد بضع مئات من الأمتار، وشرعوا في دخول النهر من أجل العبور إلى الناحية الأخرى.

كان سادر ورجاله يشاهدون ما يجري وهم عند طرف الغابة، فقال بومبا بتحفز: "لماذا يا سادر لا ننتقل إلى المكان الذي يواجه مكان عبورهم؟" فرد سادر: "لو قمنا بذلك فسندفعهم إلى التوجس والحذر، وربما أحجموا عن العبور، فيبطل تدبيرنا، ولكن انتظروا إشارتي كما اتفقنا، وعند ذاك ننقض عليهم من مكاننا هذا، فمكان عبورهم الجديد لحسن الطالع لا يبعد عنا كثيرًا".

ظل سادر ورفاقه من مكانهم بجوار الغابة يشاهدون تزايد عدد الواصلين إلى ضفتهم من أعدائهم، وكان سادر يَعُدّهم حتى وصل عددهم إلى قرابة السبعين رجلًا، فأعطى عندها إشارة الهجوم، فانقض عليهم رجاله وهو في مقدمتهم كالصقور الكواسر، بينما راح بومبا ورفاقه الثلاثون من الجانبين يستهدفون المجاميع التي لا تزال في وسط النهر بالرماح والحجارة كما أوصاهم سادر،

ليقهروهم على العودة أدراجهم، فأربكوا سباحتهم ونجحوا في إصابة بعضٍ منهم، ولم يتمكن من إكمال العبور والالتحاق بطليعتهم سوى حفنة من الرجال، أما سوادهم فأُرغموا على العودة إلى الضفة الأخرى، حيث يقف قائدهم رابون الذي أخذ يصيح بهم: "لا تتراجعوا أيها الجبناء، لا تفروا أيها الجبناء" لكنهم لم يحفلوا بصيحاته ولا التفتوا لها؛ وربما بدت لهم رماح بومبا وصحبه في الماء أبلغ من صراخ قائدهم على اليابسة، وأكثر إقناعًا، فاكتفوا بمشاهدة ما يجري لطليعتهم على الضفة الأخرى على يد سادر ورفاقه".

وحين أدرك بومبا ومن معه بأنهم قد نجحوا في صد أكثرية المهاجمين الذين كانوا في الماء، ودفعوهم إلى التقهقر نحو الضفة الأخرى، هبوا لمساندة سادر ومن معه في قتال الطليعة المعزولة على الضفة الشرقية.

كان رجال تلك الطليعة التي عبرت النهر يقاتلون بشجاعة، وسقط منهم سبعة قتلى وأكثر من عشرين جريح ولم يتوقفوا، لكنهم حين شاهدوا رفاقهم واحدًا تلو الآخر يعودون أدراجهم نحو الضفة الأخرى تهاوت معنوياتهم، وتراجع عزمهم، فلمح سادر ذلك وصاح بهم: "سلموا أمركم لنا ولن نقتلكم. لم نقتل رفيقيكم اللذين أمسكنا بهما البارحة، ولن نقتلكم الآن، أما من بقي يقاتل فسنقتله في الحال.. هيا ألقوا أسلحتكم ولكم منا الوعد بالأمان" فاستجاب أحدهم وألقى هراوته مستسلمًا، فتبعه رفاقه كحبات العقد إذا انفرط، وراحوا يلقون رماحهم وهراواتهم، فأمر سادر ابنه ميراك وهميان وعدد آخر من رجاله باقتياد الأسرى إلى قرب الغابة وتقييدهم.

قال ميراك: "لماذا نُبقي عليهم يا أبتي؟ دعنا نقتلهم.. نحن لا نملك هنا ما نقيدهم به، فكل حبالنا مع النساء والأطفال".

صرخ سادر في وجه ابنه: "اصنعوا من لحاء الأشجار حبالًا، وإلا فلتبق أنت ومن معك من حولهم هناك بقرب الغابة، هيا تحركوا".

تفقد سادر خسائر رجاله، فوجد فيهم قتيلان وستة عشر جريحًا، فأشرف على حمل الجرحى إلى ظل الأشجار عند طرف الغابة، وترك معهم من يستطيع العناية بهم.

وبعد أن اطمأن سادر على جرحى رجاله وعلى إقامة الحراسة على الأسرى، طلب نقل جرحى أعدائه ليتلقوا العناية مع جرحى رجاله، ثم عاد هو وبقية رجاله إلى ضفاف النهر، يتابعون ما يدور على الضفة الأخرى، حيث كان القائد رابون ورجاله قد بدأوا بالتحرك مسايرين ضفاف النهر، بغية عبور النهر من مكان آخر هذه المرة، فمشى سادر ومن معه بموازاتهم على الضفة الأخرى قليلًا حتى أصبحوا إزاءهم، وناداهم سادر بصوته القوي وقال: "إذا حاولتم العبور إلينا أو مهاجمتنا مرة أخرى فسنقتل رفاقكم هؤلاء" مشيرًا إلى طرف الغابة حيث الأسرى والجرحى، وأضاف: "إن كانت حياتهم تهمكم فاتركونا وشأننا" والتفت إلى رفاقه وقال: "أظنهم سيكونون الآن أكثر حذرًا معنا. هيا لنعد إلى جوار الغابة، كي لا يستثير بقاؤنا هنا حنقهم، ومِن هناك نستطيع أن نرصد أي تحرك لهم كما لو كنا هنا، أما إذا ابتعدوا كثيرًا فسنرى لنا تدبيرًا آخر".

أوقف رابون وقومه تحركهم، وعادوا إلى مكانهم السابق قبالة المكان الذي يتواجد فيه عدوهم، وكان من الجلي أن هناك جدال محتدم بين رابون ورجاله، وبلغت أصواتهم الناحية الأخرى من النهر.

لم يطل الانتظار بسادر ورفاقه حتى رأوا رابون بنفسه يلوح لهم بيده، فاقترب سادر من النهر ليتمكن من سماع ما يريد رابون قوله، وكان ما توقعه سادر، فالقائد رابون وقومه يطلبون إطلاق سراح أسراهم؛ ولم يكن تفكيرهم ليميل

سريعًا إلى هذا النسق لولا نجاح عملية تبادل الأسرى السابقة، لكنهم هذه المرة كانوا يطلبون إطلاق أسراهم وحَسْب، فقال سادر مُجيبًا رابون عبر النهر: "إذا تركتمونا وشأننا، وعدتم من حيث جئتم، فسنطلق رفاقكم.. نطلق الآن نصفهم، ونصفهم الآخر بعد أن تصلوا إلى حيث كنتم تقيمون، على ألا تعودوا لمهاجمتنا مرة أخرى".

قال القائد رابون: "وما الذي يجعلنا نُصدِّق بأنكم ستفون بوعدكم وتطلقون النصف الأخير من رفاقنا بعد أن نعود؟"

قال سادر: "أنا لا أكذب ولا أخلف الوعد، وإذا كنتم تشكون بصدقنا، فلماذا نصدِّق بأنكم لن تعودوا لمهاجمتنا مرة أخرى بعد أن نطلق النصف الأخير من رفاقكم؟"

قال رابون بضيق: "اسمع يا هذا، إذا كنتَ كما تقول تفي بالوعود، فأنا القائد رابون، لا أكذب ولا يسقط وعدي، وأنا أعدك بأننا لن نهاجمكم إن أنتم أطلقتم رفاقنا، فهل تعدني بأنكم ستطلقون نصفهم الأخير حالما نعود؟" أجاب سادر بثبات: "نعم أعدك بأن نطلق من سيتبقى من رفاقكم معنا بعد أن تعودوا ونعود".

قال رابون مستفهمًا: "تعني بعد أن نعود نحن، أما أنتم فتعودون إلى أين؟"

-"إلى المكان الذي كنا بالأمس فيه قبل أن ننتقل إلى هنا، هناك حيث يفصل النهر بيننا وبين المكان الذي تقيمون فيه كما يفصل بيننا الآن".

غضب رابون مما سمع وقال: "إذن فقد عزمتم على البقاء في أرضنا".

فأجابه سادر: "إنها أرض كبيرة وغنية، تكفيكم وتكفينا وتزيد".

قال رابون بِحِدَّة: "أقسم بالشمس العالية إن لم تغادروا كل أرضنا أن نسحق رؤوسكم، واعلموا أن أرضنا تمتد حتى الشلال".

عندها تدخل عدد من رفاق القائد رابون، وتجدد الجدل بينهم وبينه، وكان ما يجري يُظهر لسادر أن رجال رابون غير منقادين له تمامًا، وأنهم الآن يضغطون عليه لإتمام الاتفاق من أجل إطلاق رفاقهم.

بعد نقاشات ساخنة بين رابون ورفاقه، وجَّه وجهه ناحية سادر وقال بصوت عالٍ: "حسنًا، أنا أَعِدُ بعدم مهاجمتكم إذا أطلقتم رفاقنا بعد عودتنا وعودتكم".

قال سادر: "حسنًا لقد اتفقنا".

ساد السكون لبرهة كان رابون خلالها يهرش ناصيته، ثم قال: "هناك أمر آخر.. اعلموا أننا نتوجه كل يوم إلى الغابة لجمع الثمار والصيد، والغابة على ضفة النهر الشرقية التي تقيمون عليها، فاحرصوا كل الحرص أن لا يتعرض أحد منكم لأي منا وهو في طريقه إلى الغابة، وإلا فإني متحرر من وعدي".

قال سادر: "سنحرص على ذلك".

عندها قال رابون مشيرًا إلى رجاله ومؤكدًا مظان سادر: "ما كنتُ لأقبل ببقائكم على أرضنا لولا أن دفعني هؤلاء إلى القبول، ومع ذلك أنا ملتزم بوعدي لكم، ولكن كونوا على ثقة بأن من الخير لكم الابتعاد عنا قدر المستطاع.. هي نصيحة فقط".

ساد الصمت مجددًا والزعيمان يتبادلان النظرات، ثم استدار سادر وعاد إلى طرف الغابة.

ارتأى سادر أن يجعل جرحى خصومه ضمن نصف الأسرى الأول الذين سيطلق سراحهم الآن كما يقضي الاتفاق، حتى لا يتجشم هو ورجاله عناء نقلهم أثناء رحلة العودة، فأمر بنقل الجرحى إلى ضفاف النهر، مع عدد آخر من الأسرى الأصحاء؛ ليساعدوا رفاقهم الجرحى على عبور النهر، وطلب إحضار

بعض جذوع الأشجار المتيبسة من الغابة؛ لكي يستعملها الأسرىٰ في الانتقال إلىٰ الجانب الغربي من النهر.

وبعد وصول الأسرىٰ المحررين إلىٰ الضفة الأخرىٰ، بدأ قومهم مسيرة العودة، وكذلك فعل سادر ورفاقه.

وهكذا عاد الفريقان نحو منطقة المصب وهما يسيران بمحاذاة النهر، سادر ومجموعته شرقي النهر، ورابون ومجموعته غربيه، وسط تعجُّب رفاق سادر من هذا الاتفاق الذي عقده قائدهم مع مجموعة من الغرباء!

وصل الطرفان إلىٰ منطقة المصب وقد حل المساء، وأطلق سادر النصف الآخر من الأسرىٰ كما وعد. وكان كل ما جرىٰ ذلك اليوم يُنَبِّهُ بشكلٍ ما رجال المجموعتين البشريتين إلىٰ فرق القدرات بين القائدين، واختلاف مكانتيهما بين قومهما.

قضىٰ سادر ورفاقه بقية ليلتهم تلك يتناوبون الحراسات، ولزموا هذه الوتيرة عشرة أيام أُخر، كانوا خلالها يرون أفراد مجموعة رابون عندما يمرون بهم قاصدين إلىٰ الغابة، وعائدين منها، ولمَّا لم يظهر لهم ما يشير إلىٰ عدم الالتزام بالاتفاق، أصبحوا أكثر اطمئنانًا.

وفي الليلة التالية كان سادر يتسامر - كما كانت عادته في الماضي - مع هميان والحكيم وابنه ميراك، والتحق بهم كادوس وظريف ومادو الحاذق. وقال لهم سادر: "لقد مرت عشرة أيام ألفنا خلالها رؤية هؤلاء الغرباء حين يأتون إلىٰ الغابة، وقد بتنا الآن أكثر تصديقًا بأنهم لا ينوون مهاجمتنا".

قال مادو الحاذق: "نعم يبدو أنهم صادقين في احترام الاتفاق، وهذا فوز كبير لنا، وإن شئت الحق يا سادر فهذا الفوز مسنود إليك، أنت من أخرجنا من

أرض الجوع إلىٰ هذه الأرض الغنية بالطعام والجمال، ثم أنت من قدتنا بعد ذلك، رغم ترددنا، للدفاع عنها والثبات فيها".

قال ميراك بن سادر: "لكن كيف لنا أن نطمئن إلىٰ اتفاقٍ كان قائدهم مُكرهًا عليه.. لقد ذكر ذلك لأبي بوضوح ذلك اليوم".

فقال سادر: "بل هذا هو ما يجعلني مطمئن أكثر علىٰ استمرار الاتفاق؛ فقد سعوا له بصدق وإخلاص بلغ بهم أن أرغموا قائدهم عليه.. نعم نعرف أن عيونهم كانت علىٰ إطلاق رفاقهم، لكنهم أيضًا بدو غير مقتنعين تمامًا بقتالنا".

قال ظريف: "طالما وهؤلاء الغرباء لن يهاجمونا كما تقولون، إذن ألم يأن الوقت لعودة النساء والأطفال؟ أنا لا أشك أنكم جميعًا مثلي قد اشتقتم إلىٰ أسركم".

قال سادر: "إن ظريف محق، سيذهب هميان وميراك غدًا ليأتيا بالنساء والأطفال". ثم صمت قليلًا والتفت صوب ضفة النهر الغربية المظلمة وقال: "لقد فكرت طويلًا في أمرنا وأمر الغرباء، وإقامتنا وإياهم علىٰ هذه الأرض، وأرىٰ أن حياتنا معًا متجاورين ستجعلنا علىٰ الدوام عُرضة لما قد يثير خلافًا هنا أو هناك، ولا يغرنكم تغلبنا عليهم ذلك اليوم، فلست علىٰ يقين أن يتكرر فوزنا إذا ما جابهناهم من جديد؛ إنهم أكثر عددًا ومعرفة بهذه الأرض.. لا أريد أن أقول ما يوهن عزم الرجال، ولكني أخشىٰ عليهم الاغترار ومغبته. لقد أصبحنا جميعًا علىٰ قناعة بضرورة تمسكنا بهذه الأرض، ولكن علينا تجنب المشاكل مع الغرباء.. أريد من الجميع أن يعوا هذا".

قال ظريف: "اطمئن يا سادر، سنخبر الجميع غدًا بوصيتك، وسيكونون أكثر حرصًا مع هؤلاء الغرباء".

وقال الحكيم: "وانا سأحثهم علىٰ الحرص كذلك".

فقال ظريف مازحًا: "أنت حاضر للمساعدة دومًا يا حكيم، لقد أمددتنا حين كنا نقاتل الغرباء عند الشط، بالصلاة والدعاء من أطراف الغابة".

أجاب الحكيم بجدية: "ماذا تقصد يا ظريف؟ أنا لا أجيد القتال، لكنني ساعدتكم في شد همة الرجال".

ضحك سادر وقال: "لا عليك يا حكيم، إن ظريف يعلم أني طلبت منك عدم الاشتراك في القتال".

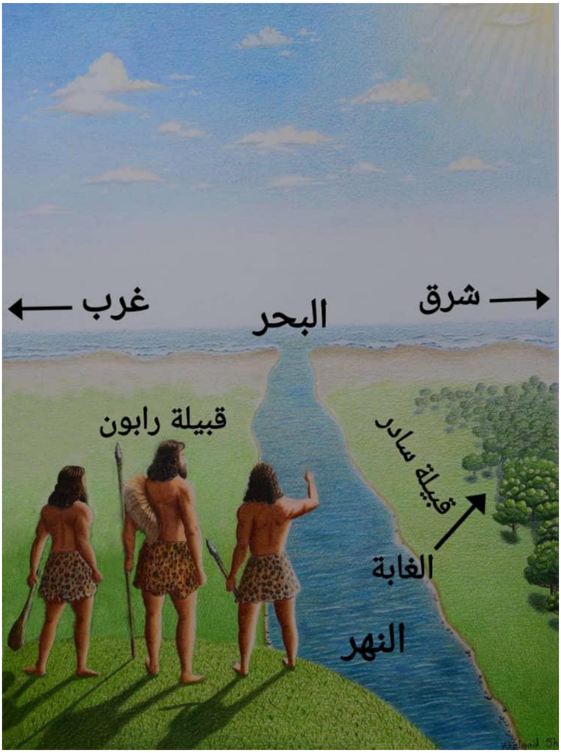
قال ميراك بن سادر: "على ذكر يوم القتال والصلاة، لقد رأيت بعض الغرباء يوم القتال قبيل عبورهم النهر يرفعون أيديهم وكأنهم يبتهلون".

قال كادوس: "لقد كانوا يبتهلون إلى الشمس.. تعلمون أنهم أخذوني معهم عند خروجهم لقتالكم، ولقد رأيتهم ذلك اليوم يكثرون من دعاء الشمس، فهم يخصون الشمس بالعبادة ويتوجهون إليها بالدعاء، وكنت أثناء مسيرنا ذلك اليوم أتحدث مع أحد الذين أُوْكِلَت إليهم حراستي ومرافقتي، وفهمت منه أنهم يعبدون الشمس، و يعتقدون أن لعنتها قد حلّت منذ أمد بعيد على الأراضي الواقعة أعلى الشلال، ولمّا أخبرته أننا نعبد النهر ولا نعبد الشمس، تملكه الفزع"، ثم سمعته يقول لرفاقه: "هل تصدقون أن الغرباء لا يعبدون الشمس، وإنما يعبدون النهر!" وأضاف كادوس ضاحكًا: "إنهم يسموننا الغرباء" فضحك الحاضرون ملء أفواههم.

وبعد أن سكنت الضحكات قال ظريف: "طالما والأمر على هذا النحو، فلا أظن أن الغرباء من البشر؛ كيف يكونون بشرًا وهم لا يعبدون النهر! إنهم إذن مثل باقي العجماوات، إلا أنهم أخطر منها لاجتماعهم في القتال، أما هن فلا يهاجمن إلا فُرادى".

قال مادو الحاذق: "عدم عبادتهم للنهر لا تعني أنهم ليسوا بشرًا يا ظريف".

فقال الحكيم: "لم يكن ظريف جاد في قوله بأن الغرباء ليسوا من البشر يا مادو.. لو لم يكونوا بشرًا لما أقمنا معهم اتفاقًا".



خريطة

قال مادو الحاذق بترو: "أظن أننا وهؤلاء الغرباء كنا في الماضي البعيد مجموعة واحدة؛ إنهم لا يختلفون عنا في شيء، ولقد سمعت الكثير من والدي، وهو سمع بدوره ما تناقله من سبقوه، ومما سمعت أن هناك مجموعة كبيرة جدًا من البشر كان أهلها يعيشون معًا حتى نزل بهم غضب الإله، فتفرقوا عُصبا، وأن تلك العُصب هلكت جميعها ولم تبق إلا عصبتنا، وأظن أن الغرباء يعودون مثلنا إلى تلك المجموعة القديمة".

قال ظريف: "نعم ربما كنا والغرباء فيما مضى مجموعة واحدة، حتى أن أحدهم يشبهك يا مادو، ولربما كان أحد أقربائك البعيدين" فضحك القوم وقضوا جل ليلتهم في تفكُّههم وتنادرهم، قبل أن ينفض السامر ويخلدون إلى النوم.

في الصباح كان سادر يتوسد ذراعه ويسبح في نوم عميق، إلى أن قطع عليه نومه رفيقه هميان لأجل استقبال رسول من القائد رابون.

جلس سادر يفرك عينية ويتذكر خط سير الأحداث، ثم قال لهميان: "ماذا يريد؟" فأجاب هميان: "لا أعلم، قال أنه مرسل من رابون إلى زعيمنا، فقلت له ماذا تعني كلمة زعيمنا؟ فقال تعني قائدكم".

لم يطل انتظار الرسول الذي كان يسمى "ماس"، وهو رجل في خمسينيات العمر، عليه قدر من الوقار، وإذا ابتسم أوحت نظراته بما يبدو أنه إضمار المكر والخداع.

أقبل سادر نحو زائره الذي كان ينتظره عند ضفاف النهر، فقال الزائرُ مبتسمًا: "ألا ترى يا سادر كيف نلتقي اليوم! وشتان ما بين لقائنا اليوم ولقائنا بالأمس".

-"كيف عرفت اسمي؟"

-"سألت ذلك الرجل الذي قابلته أولًا هنا عند وصولي، يبدو أنه شديد الولاء لك، لقد رأيته إلى جانبك يوم القتال، حين كنت تُكَلِّم زعيمنا رابون، ثم لا تنس أنكم كنتم تمسكون بعدد من رجالنا، وقد أخبرونا الكثير عنكم، ولكن دعنا من هذا، فقد تصالحنا وانقضى الخلاف، والحق أني لا ألوم أسلافنا الذين توارثوا مقولة "ذروة شرور الإنسان هي قتاله لأخيه الإنسان".

-"لقد أفقت من نومي للتو، وكلامك هذا يدفعني إلى الاعتقاد بأني أستمع إلى الحكيم.. حكيمنا".

-"حقًا؟ اسمي ماس، لكنهم أحيانًا يدعونني الحكيم، لأنني حكيم القبيلة".

قال سادر متسائلًا: "حكيم القبيلة، ماهي القبيلة؟"

-"ألا تعرفون ماهي القبيلة وأنتم قبيلة!.. القبيلة هي مجموعة كبيرة من البشر يعيشون معًا. يقول أسلافنا أن هناك قبيلة من الأشرار هاجمت قبيلتنا في الأزمان الغابرة، وأن هناك قبيلة من الصالحين ساندت قبيلتنا في ذلك القتال، ولكننا لم نكن نصدق تلك الحكايات، لذلك فاسم القبيلة وإن كان يعني عدد من البشر يعيشون معًا، إلا أننا نراه اسم لنا، والقبائل الأخرى مجرد خيال، لكن هذا تغير بعد أن رأيناكم".

-"حسنًا لقد فهمت ماذا تعني بالقبيلة، ونحن أيضًا مثلكم.. أعني مثل قبيلتكم كنا نظن أننا البشر الوحيدون على الأرض".

قال ماس: "الحق يا زعيم أن وجود كلمة قبيلة، وكلمات أخرى غيرها، تجعلني متيقن من أننا كنا جزء من قبيلة كبيرة لم تكن القبيلة الوحيدة، وكانت لديها مثل هذه الكلمات.. لو تمعنت في الكلام الذي نتحدثه ونسمعه كل يوم، لوجدت كلمات كثيرة تشير إلى ما قلت لك".

قال سادر: "أما الآن فأنت تذكرني بمادو الحاذق" ثم أضاف: "دعنا من هذا الكلام الذي سحبتنا إليه، وقل لي فيم قدومك؟" قال ماس: "سبب قدومي إليك هو تَحَسُّبنا من أن يتسبب وجودنا معًا على هذه الأرض في قتال جديد بيننا وبينكم، والزعيم رابون وإن كان فيه شيء من الطيش والتسرع، إلا أنه كثيرًا ما يقبل النُصح؛ ويستمع إلى أهل العقل والرأي".

قال سادر بنبرة تعجب ممتزجة بالتهكم: "العقل والرأي!"

ضحك ماس وقال: "أنا أعلم بأنكم تنظرون إلينا كغرباء وحتى كوحوش".

قال سادر: "وما الذي يجعلك على يقين بأننا نراكم على النحو الذي ذكرت؟"

فأجاب ماس بنبرة حذرة: "لأننا كذلك ننظر إليكم كوحوش، أو كنا ننظر إليكم كوحوش.. أرجو ألا يغضبك ذلك يا زعيم، إنما أردت أن أصدُقك القول".

قال سادر وقد بدا جليًا تجاوزه لآثار النوم، وأنه أصبح بكامل تركيزه: "إذن ما الذي يجعل قائدكم وحكماءكم يرسلونك إلى الوحوش؟ ثم تقبل أنت بذلك؟ هل يكرهونك وتكره نفسك إلى هذا الحد؟"

أجاب ماس: "لقد أَخْبَرَنَا رفاقنا الذين أطلقتموهم أنكم بشر مثلنا ولستم وحوشًا، وأنكم ساعدتم المصابين منهم، وأخبرونا بأنك رجل حكيم وذكي، تجد الحلول وتباشر تنفيذها، ثم ما رأيناه من وفائك بالاتفاق الذي عقده معك رابون لإطلاق رفاقنا الذين أمسكتم بهم، كل هذا جعلنا نعتقد أن الاتفاق مع رجل بمثل عقلك يُعتمد عليه، فَقَدِمْتُ إليك لكي نصل إلى اتفاق بشأن هذه الأرض التي بتنا نتشارك العيش فيها".

قال سادر وابتسامته تعود: "يبدو أن حب الإطراء متمكن من قلوب البشر، ولا أخفيك أن ما ذكرت عن رأيكم فيني قد أعجبني، أما بشأن الاتفاق الذي تطلبونه مني لنتجنب الخلاف، فأنا راغب به كما ترغبون، فقل لي كيف تريدون أن يكون اتفاقنا، ثم بعدها تسمع رأيي".

قال ماس: "نحن نظن أن الأرض ستكفينا وتكفيكم، وأننا نستطيع أن نَقسِمها بيننا، ولنا طلب آخر وإن كان صغير، وهو الحصول على بعض ما تسمونها مقاليع الحجارة.. لقد رأيناكم تستخدمونها في القتال لرمي الحجارة،

وذكر لنا رفاقنا الذين كانوا عندكم أنكم تسمونها مقاليع الحجارة، ونريد بعضًا منها لنستخدمها في الصيد.. أو قوموا بتعليمنا صناعتها".

ضحك سادر من أعماقه وقال: "لقد فهمت، ولا أمانع في إعطائكم بعض مقاليع الحجارة، وهي ليست دائمًا وسيلة ناجحة في القتال كما تظن".

فقال ماس: "إنما نريدها من أجل الصيد".

ضحك سادر من جديد وقال ممازحًا: "أظنكم ستصيدون الأسماك بمقاليع الحجارة، ولن نجد في اليوم التالي سمكة واحدة في النهر".

أراد ماس رد الدعابة بمثلها فقال: "لن نصيد أسماك النهر بمقاليع الحجارة، بل سنصيد أسماك البحر البعيدة" فتساءل سادر: "وما هو البحر؟"

فغر ماس فاه وقال بدهشة: "لا تعرفون البحر!!" ثم أشار ناحية البحر وقال: "إنه هذا، هذا الماء الضخم هو البحر".

قال سادر بهدوء: "حسنًا كما تشاؤون، سنقدم لكم عددًا من مقاليع الحجارة، أما بشأن اقتسام الأرض، فأرى أن يكون النهر فاصلًا بيننا وبينكم، فتكونون على جانب النهر الغربي، ونحن على جانبه الشرقي، كما هو الحال الآن، ولا يجوز لأي منا أن يقطع النهر نحو أرض الآخر".

كان الرجلان يريدان الاتفاق، ولم يطل نقاشهما حتى توصلا إليه، كما أن رؤية سادر القاضية بأن يكون النهر هو الحد الفاصل بين القبيلتين، كانت هي الواقع القائم الذي تعايش معه الطرفان وقبلوا به، فتم الاتفاق على ذلك الأساس دون عناء، على أن تقدم القبيلة الشرقية - أي قبيلة سادر - خمسة عشر مقلاع حجارة للقبيلة الغربية، وأن يكون لأفراد القبيلة الغربية الحق في عبور النهر والتوجه نحو الغابة متى شاء أي منهم القيام بذلك.

أصحاب الأطواف

انقضت بهدوء قرابة العشرين يومًا منذ إبرام الاتفاق بين القبيلتين، ذاق فيها سادر وقومه من هناء العيش ما لم يعرفوه قط طوال حياتهم، وبنوا أكواخًا من ذلك النوع الذي درجوا على بنائه في الأيام الخوالي، حين كانوا يقيمون لعدة أيام في مكان ما، خلال تنقلهم المستمر، لكنهم هذه المرة جعلوا الأكواخ أشد بناء؛ فلم يكن في نيتهم الرحيل وترك هذه الجنان.

وفي ذات صباح وصل رسول من رابون زعيم القبيلة الغربية إلى كوخ سادر، وخرج إليه سادر مرحبًا، وسأله لماذا يبدو عليه الاستعجال، فقال الرسول اللاهث: "لقد بعثني الزعيم رابون نذيرًا من أطواف كبيرة رأيناها في البحر".

-"البحر!.. نعم تذكرت، لقد سمعت حكيمكم يسمي الماء الكبير البحر، أكمل ما تريد قوله".

-"يقول الزعيم رابون أن الأطواف الكبيرة تحمل بشرًا غرباء، قد يهاجموننا ويهاجمونكم، وأن علينا أن نجتمع ونجابههم يدًا بيد، لكي نتمكن من صدهم".

ألقى الرجل قوله بسرعة ثم انصرف نحو النهر ليعود من حيث جاء، فصاح به سادر قبل أن يبلغ النهر قائلًا: "توقف أيها الرجل، كيف تريدني أن أصدق بوجود غرباء على أطواف في البحر سيهاجموننا؟"

-"أقسم بحق شمس السماء العالية أن هناك غرباء في البحر، ولقد كنا نظنهم أنتم حتى تثبتنا من أنكم هنا لم تغادروا المكان" ثم قفز الرجل في النهر.

دعا سادر من كانوا حينها قريبون منه، وأرسل ابنه ميراك ليدعو بقية رجال القبيلة للقدوم إليه، وحين التأم الجمع أخبرهم بما بلغه للتو، فقال الحكيم: "اعذرني يا سادر، ولكني أرى أننا منذ تخطَّينا الشلال هابطين إلى هنا، خرجنا

من النعيم إلى العذاب، ولقد ساندتك في الدعوة إلى النزول إلى هذه الأرض وأنا أظن أن مكوثنا فيها لن يطول، ولم أكن أعلم.."

قال ظريف مقاطعًا ومتوجهًا إلى سادر: "أرى يا سادر أن يعود الحكيم إلى النعيم أعلى الشلال، ويتركنا هنا للعذاب، ليرتاح ويريحنا من تذمره".

نظر الحكيم إلى جمع الرجال وقال: "قولوا لي كيف يمكن أن نواجه هؤلاء الغرباء أصحاب الأطواف؟" فلم يتفوه أحد من الحاضرين بكلمة، وبدت الحيرة عليهم.

ففاض بسادر وقال: "ما بالكم متخاذلين؟ لقد استطعنا من قبل مواجهة رابون ومجموعته، وكنا وقتها ننظر إليهم على أنهم وحوش، لاعتقادنا بأننا البشر الوحيدون في الأرض، ومع ذلك لم يهزنا الخوف، بل قاتلناهم ببسالة كالأسود وغلبناهم، فما الذي جرى لكم الآن؟! هل أوهنت عزمكم وفرة الطعام؟"

فجاءت الردود متعددة بالنفي.

قال سادر: "إذن انبذوا التخاذل وشدوا الهمم".

ثم راح يقلّب الطرّف في وجوه القوم، وقال بنبرة قوية: "أنا أثق بأنكم كما واجهتم الأخطار في ما مضى وتغلبتم عليها، ستواجهون أي خطر بذات القوة وتغلبونه ولا مكان بيننا للضعفاء. أيها الرجال، كونوا كما كنتم دائما شجعانًا مترابطين، ولنستعد جميعًا لعبور النهر والالتحاق بالغربيين، فإن كان ما بلغنا حقًا، ساندناهم في مواجهة الغرباء، وإن كان كذبًا، فسنرى لنا رأيًا حازمًا معهم".

شبت كلمات سادر نار الحماسة في صدور القوم، وطفقوا يستعدون لعبور النهر والقتال، ولم تمر دقائق إلا وهم يلتفون حول سادر حاملين الهراوات والرماح، فقال لهم سادر: "لقد اعتذرت من الحكيم على ما بدر منا، فسامحنا

بقلبه الكبير، وقال بأنه سيصلي لنا من أجل أن يغفر لنا النهر زلاتنا، ويسمح لنا بالبقاء في هذه الأرض، وينصرنا على كل من ينافسنا" فأخذ الرجال يشكرون الحكيم، ويقبلون رأسه، وأعجب الحكيم تصرف سادر، وإن بقي شيء من مرارة الموقف معه.

وعلى غرار المرة السابقة، كلف سادر عددًا من الرجال بالتراجع بالنساء والأطفال صعودًا بمحاذاة النهر، وطلب منهم هذه المرة أن يسيروا فقط حتى يحل عصر ذلك النهار، ثم يتوقفوا ويقيموا هناك حتى يأتيهم رسول منه، وطلب منهم ألا يبدؤوا بالمسير حتى يبعث لهم رسولًا بذلك، بعد أن يعبر النهر ويتوثق من صحة نبأ الغرباء أصحاب الأطواف.

عبر سادر النهر مع رجاله إلى الجانب الغربي، وكان أحد رجال القبيلة الغربية في انتظارهم هناك، وقال لسادر: "لقد طلب مني القائد رابون أن أنتظركم هنا، لكي أصحبكم إليه إذا عبرتم النهر".

-"وأين هو؟"

-"إنه ومعه كل الرجال عند الشاطئ"

-"وما هو الشاطئ؟"

-"هل أنت جاد أيها القائد أم تمازحني؟!"

-"وهل هذا وقت مزاح؟"

-"الشاطئ أيها القائد هو حيث يلتقي البحر مع الأرض"

-"حسنًا، إذن هيا بنا إلى الشاطئ"

قادهم الرجل إلى الغرب قليلًا، ثم انعطف بهم نحو شاطئ البحر، وألْفوا رجال القبيلة الغربية وقوف هناك على أُهبة القتال، وعلى رأسهم قائدهم رابون، وحكيمهم ماس.

تهلل وجه رابون عندما وقعت عيناه على سادر ورجال القبيلة الشرقية، وتلقى سادر بالأحضان، وكذلك فعل الحكيم ماس، ثم سأل سادر رابون عن ما يجري. قال رابون وهو يشير بيده نحو البحر: "انظر إلى تلك الأربعة الأطواف الضِخام، إن الواحد منها يحمل عشرات الرجال كما ترى، وكان هناك طوف خامس، لكنه تراجع حتى اختفى في البحر، أمّا هذه الأربعة الأطواف فظلت متوقفة، وكأن أصحابها ينتظرون" وأضاف رابون: "في البداية اعتقدنا أنكم أنتم على ظهر هذه الأطواف، فلا يوجد بشر غيرنا سواكم، ولكن أحد الرجال أخبرَنا بأنه جاء لتوه من الغابة، وأنه لم يلحظ غيابًا لرجالكم عندما مرّ بكم هناك على الجانب الشرقي، لأن أصحاب الأطواف هؤلاء لو كانوا منكم، لما بقي من رجالكم هناك إلا القليل، بل لما بقي من رجالكم هناك أحد، ثم بعثنا من يتأكد من صحة ما روى الرجل، فتبينت لنا صحته، وعرفنا بأن أصحاب الأطواف غرباء. ولقد عمَّ الذعر أفراد القبيلة حين تأكدنا بأنكم لستم أصحاب هذه الأطواف".

قال سادر على الفور: "إن هذه الأطواف غير بعيدة عن الشاطئ، وكأن أصحابها كما قلتَ يؤخرون تحركهم انتظارًا لأمرٍ ما، ولا أظنهم في انتظار شيء هناك وسط الماء إلا أطواف أخرى" وساد الصمت حتى لم يعد يُسمع إلا صوت موج البحر.

قطع سادر الصمت وقال: "إن انتظارنا بلا تدبير ولا استعداد يا رابون يماثل تقديم أنفسنا فريسة لهؤلاء الغرباء".

قال رابون: "وماذا ترى أن نفعل؟ أما الاستعداد فنحن مستعدون بأسلحتنا للمواجهة".

أجاب سادر: "هذا الاستعداد لا يكفي.. قبل كل شيء يجب أن نبتعد عن الشاطئ حتى نُحكم تدبيرنا، فلا يدهمنا الغرباء قبل ذلك، ويبقى عشرة رجال هنا لمراقبة الأطواف وإخبارنا إن طرأ ما يستحق إخبارنا به"، استحسن رابون قائد القبيلة الغربية وحكيمها ماس مقترح سادر فتم الأخذ به، وتراجع حشد الرجال عن الشاطئ بضع مئات من الخطوات، بعد أن تركوا هناك عشرة رجال رصدًا.

قال سادر لرابون وسط جلبة الجمّع الكبير: "إن كثرتنا هنا لن تدعنا نتكلم بروية ونفكر كما يجب، نحن لا نكاد نسمع بعضنا.. أنا سأدعو رجال القبيلة الشرقية كما تسمونهم إلى الانتظار هنا، وافعل أنت ذات الأمر مع رجال القبيلة الغربية، ثم نتوجه أنا وأنت مع من نراه من رفاقنا من ذوي الرأي صوب تلك الصخرة، لنكمل حديثنا هناك، ولنسرع، فقد يدهمنا الغرباء في أي وقت".

وهكذا ظل رجال القبيلتين حيث هم، متيحين الفرصة لقائديهما ومن يختاران معهما للتشاور بهدوء.

انتخب سادر من قبيلته الحكيم رفيق النهر، ومادو الحاذق، وصفيّه هميان، وابنه ميراك، وتوجه معهم نحو صخرة بركانية تبرز من الأرض، وجلسوا بجوارها يرقبون مجيء قائد القبيلة الغربية رابون، ومن ينتقيهم من قبيلته لحضور جلسة التشاور، ولم يطل ترقبهم حتى أقبل نحوهم رابون وبصحبته صديقه الأقرب المسمى دار، وحكيم القبيلة الغربية ماس، وثلاثة رجال آخرون.

سارع حكيم القبيلة الغربية ماس قبل أن يصل تمامًا إلى حيث يجلس سادر ومن معه بالقول: "أنا أوافقك الرأي يا سادر بشأن التدبير والاستعداد، ولكن هذا لا يتم إلا بقائد واحد، لأن تعدد القادة يُفضي إلى تواكلهم، وضياع الأمر

بينهم، ثم أضاف بعد أن توقفت خطاه عند الصخرة: " المثل يقول: إذا تعدد الحكماء كثرت العواصف".

قال سادر: "لا أظن أن لدينا مثل هذا المثل، لكني أؤيد ما يعنيه، لأن كثرة من يتولون أي أمر، تدفعهم إلى التنازع والتواكل، ولهذا فليكن رابون قائدنا في هذا القتال".

قال حكيم القبيلة الغربية ماس: "بل أنت يا سادر، وأظن زعيمنا رابون يوافقني على هذا".

علق رابون باقتضاب: "نعم أوافقك"، فقال ماس: "أسمعت؟ إن الزعيم رابون يريدك أن تقودنا اليوم يا سادر، هذا قتالنا جميعًا وأنت كفؤ لقيادتنا وجدير بها، وكونك قائدنا اليوم لا يعني التقليل من غيرك"، ثم حوّل نظره عن سادر إلى بقية الجالسين بجوار الصخرة وقال: "هل رأيتم كيف يفكر ويتصرف بسرعة ودهاء؟ منذ قليل كان هو أول من دعا.."

قال سادر مقاطعًا: "ولكن حتى.."

فقاطعه ماس بدوره: "دع التردد يا سادر، فالوقت يمر ونحن لم نبدأ بعد بالحديث عن الاستعداد، أنت قائد هذا القتال ولنتجاوز هذا الأمر إلى ما بعده".

عندها تدخل دار، وهو الصديق الأقرب لقائد القبيلة الغربية رابون، وقال: "اسمعوا مني كلمات قصار قبل أن نبدأ التشاور"، فأصغى الجميع بتركيز وقد أحسوا في صوت دار شعوره بشدة أهمية ما يريد قوله، باستثناء رابون، الذي بدا عليه أنه يعرف ما سيقول دار، وقال دار مواصلًا كلامه: "نريد وعدًا منك يا سادر بأن تعودوا إلى أرضكم حال انتهاء مواجهتنا مع هؤلاء الغرباء أصحاب الأطواف".

أصابت مفاجأة دار التي فجرها بين الجالسين بجوار الصخرة سادر ورفاقه بالذهول، وربما أصابت غيرهم، لكن سادر سرعان ما تحرر من تأثير المفاجأة وقال: "أعدكم بأن نعود إلى أرضنا حال انتهاء مواجهتنا لهذا الخطر، مع أن ما من داع لهذا الوعد؛ لأن هناك اتفاق بيننا يجعل النهر فاصلًا بين أرضنا وأرضكم".

وكاد الشعور بالريبة والشك في تلك اللحظات أن يفرد ظلاله على المتشاورين، لولا أن تدارك مادو الحاذق ذلك بأن قال بصوته النحيل: "حسنًا، إن دار محق في طلبه، لأن طلبه هذا يعني تأكيد احترامنا للاتفاق السابق، ولا بأس في أن نؤكده جميعنا، ألسنا نحترم اتفاقنا ذاك؟" فترددت أصوات الجميع: "بلى، بلى".

فقال مادو الحاذق: "حسنًا، إذن دعونا نبدأ، ولتكن البداية من عندك يا سادر، فأنت من دعانا إلى هذا التشاور".

بدأ سادر بالحديث وقد استعادت كلمات مادو شيئًا من أجواء الثقة بين الطرفين، وقال: "أولًا يجب أن نفرّق مراقبين على طول الشاطئ غربًا إلى مسافات بعيدة، فهؤلاء الغرباء قد شاهدونا متأهبين عند الشاطئ القريب، ولا أستبعد أن يوجهوا أطوافهم أو بعضًا منها إلى أماكن أخرى بعيدة عن عيوننا، لينزلوا هناك ثم يأتوننا من الأرض وليس من الماء كما نتوقع، ولنخصص لهذا الأمر عشرين رجلًا.

أما إذا جاؤوا من الشرق، فالنهر سيساعد في عرقلتهم وتأخيرهم حتى نعلم بهم، ومع ذلك يجب أن نحتاط بقليل من المراقبين جنوبًا، ونخصص عشرة رجال لهذا الواجب.

أما المقاتلون فيجب أن نُقَسِّمهم.." قطع كلام سادر قدوم أحد الرجال العشرة المرابطين عند الشاطئ وهو يقول: "لقد تراجعت الأطواف الأربعة قليلًا ثم توقفت، ولا نزال نراها حيث توقفت".

قال سادر: "إذن فهم مستمرون في الانتظار. أحسنت أيها الرجل، واصلوا مراقبتهم".

انصرف الرجل فقال سادر مستأنفًا: "كنت أقول أن علينا تقسيم المقاتلين إلى مجموعات، على أن تكون كل مجموعة من عشرين رجلًا، لتكون هذه المجموعات مستعدة للتحرك والقتال في الوقت الذي نحدده، وسأختار أنا ورابون لكل مجموعة قائدًا".

التفت سادر جهة البحر وأضاف: "إذا كان هؤلاء الغرباء يريدون مهاجمتنا، فتوقُّف أطوافهم الطويل ربما يعني أنهم يعدّون تدبيرًا ضدنا، وقد تكون هناك أكثر من مجموعة منهم، ولذلك فإن من المفيد تقسيم مقاتلينا إلى مجموعات، فيكون في مقدورنا مواجهة الغرباء في أكثر من مكان، فنصد هجومهم ونربكهم قدر ما نستطيع، فإذا تمكنا من ذلك، وجَّهنا حينها بقية المقاتلين للقضاء عليهم".

وراح سادر يستكمل عرض رؤيته قائلًا: "وأريد مئتي مقاتل آخرين ينقسمون إلى مجموعتين، ثم يتوارون خلف هذا التل المواجه للبحر، ليتوهَّم الغرباء أننا فقط من يرونهم، ولكي نرسل من هؤلاء المقاتلين من يقوم بما تظهر الحاجة للقيام به، ونكون أنا ورابون على ذات التل الذي يختفون وراءه، فهو مواجه للبحر، وسيكون في مقدورنا من هناك مشاهدة كل ما يجري بوضوح، فنتصرف في الحال وكما ينبغي".

صمت سادر قليلًا ثم سأل: "هل لدىٰ أي منكم ما يريد قوله؟" فلم يحر أي من الحاضرين جوابًا.

قال سادر: "إذن أنتم توافقون علىٰ ما سمعتم، وسنبدأ بتنفيذ ما اتفقنا عليه، وليباركنا الإله".

فردد الحاضرون وأصواتهم تتداخل: "فليباركنا النهر، فلتباركنا الشمس".

تم إعداد الترتيبات وتقسيم المجموعات علىٰ النحو الذي جرىٰ الاتفاق عليه، وأخذ سادر يتعرف علىٰ قادة المجموعات المنتمين للقبيلة الغربية، وطلب ميراك من والده أن يوليه قيادة إحدىٰ هذه المجموعات العشرينية، فلبىٰ سادر طلبه، علىٰ الرغم من رغبته ببقاء ميراك إلىٰ جواره.

وقبل أن يصعد سادر التل، أرسل من يبلغ المكلفين بالابتعاد بنساء وأطفال قبيلته، أن نبأ الغرباء صحيح، وأن عليهم التحرك كما حدد لهم، ثم صعد سادر إلىٰ حيث ينتظره رابون علىٰ قمة التل المرتفع المواجه للبحر، والذي ينبثق من منبسط عشبي أخضر فسيح، فبدا التل كعرش طبيعي عملاق علىٰ سجاد أسطوري من العشب الأخضر.

استبقىٰ سادر ورابون عددًا قليلًا من الرجال معهما علىٰ قمة التل، وكان بينهم هميان رفيق سادر، ودار رفيق رابون وبضعة رجال آخرين.

تراجع أحد الأطواف الأربعة بعيدًا حتىٰ اختفىٰ في البحر، لكنه لم يلبث أن عاد مجددًا والتحق بالأطواف الثلاثة، لتتوجه الأربعة الأطواف بعدها نحو الشاطئ علىٰ مرأىٰ من الواقفين علىٰ قمة التل.

كانت المجموعات المكون كل منها من عشرين مقاتلًا تنتظر الأوامر عند سفح التل الذي يقف عليه سادر ورابون، مديرين ظهورهم للتل، ومتوجهين بأبصارهم نحو البحر.

صاح سادر بميراك وسبعة آخرين من قادة المجموعات العشرينية، يأمرهم بالتحرك نحو البحر، وأن تتكفل كل مجموعتين منهم بمهاجمة ركاب أحد الأطواف الأربعة، فانطلقت المجموعات الثمان، ولم يكد أصحاب الأطواف يضعون أقدامهم في مياه الشاطئ الضحلة حتى أدركتهم المجموعات الثمان، واشتبكوا معهم في قتالٍ عنيف.

نادى أحد أصحاب الأطواف رفاقه بصوت جهوري نداءً فهم رفاقه فحواه، فهبوا نحوه ووقفوا عن يمينه ويساره مكونين صفًا متراصًا واحدًا، فأدرك ميراك ورفاقه أن ذلك الرجل صاحب النداء هو من يقود أصحاب الأطواف. وكان قائد أصحاب الأطواف ذاك رجل مديد القامة، مفتول العضلات، له عينان كجمرتين تكادان تقدحان الشرر.

فما كان من ميراك إلا أن راح ينادي رجال المجموعات الثمان بأن يلتحموا معًا ليشكلوا صفًا يواجه صف أصحاب الأطواف، فاستجابوا له.

تقدم قائد أصحاب الأطواف أمام صف رجاله والصف يتبعه، مهاجمين الصف الذي شكله أعداءهم، واصطدم الصفان، وراح قائد أصحاب الأطواف يصول صيال الأسد، ويهد بهراوته الرجال هدًا، فأحدث ثلمًا في صف المجموعات الثمان، فتضعضع صفهم وبدأ بالتراجع وقد انشطر إلى قسمين. وبحس مبكر بالمسؤولية، شعر ميراك أن عليه إيجاد حلٍ عاجلٍ إن أراد الحيلولة دون اكتساح أصحاب الأطواف لهم، مُدركًا في ذات الوقت أن سر قوة أصحاب الأطواف تكمن في ذلك الرجل الفاتك، وأنهم لن يتوقفوا إن لم يتم إيقافه أولًا.

ولأن ميراك لم تكن له طاقة بمواجهة قائد أصحاب الأطواف، فقد راح يَحْتِل ويراوغ بعيدًا عنه ليقتنص منه لحظة غفلة، ولم يطل الوقت حتى أدار الرجل

ظهره لميراك، فأحكم ميراك قبضته على هراوته، واستجمع كل تركيزه وقوته، وقذف هراوته نحو رأس قائد أصحاب الأطواف، فصرخ أحد أصحاب الأطواف محذرًا قائده، فالتفت القائد ليتفاجأ بالهراوة تضرب جبهته، وكانت الضربة شديدة فترنح الرجل وسقط، لكنه وقع معتمدًا على ركبتيه، ثم وقف متحاملًا على آلامه، وأخذت الدماء تسيل على وجهه وهو ينضحها بكفه، ويحدج ميراك بنظرات متوعدة، وتقدم نحو ميراك بخُطى مُتهالكة وهو يكابد للحفاظ على توازنه، ثم وقع بطول قامته على الأرض، فسارع أربعة من رفاقه بحمله نحو أحد الأطواف مبحرين به بعيدًا، بينما استمر القتال محتدمًا عند الشاطئ.

فقد أصحاب الأطواف كثيرًا من حماستهم بعد مغادرة قائدهم ساحة القتال، لكنهم واصلوا القتال يرومون سحق أعدائهم، الذين استعادوا في المقابل ثقتهم بأنفسهم، فالتحم صفهم من جديد.

وبعيدًا عن أرض المعركة باتجاه الغرب، كانت هناك أربعة أطواف أخرى تنزل ركابها من المهاجمين في موضع أبعد من أن يستطيع سادر ومن معه رؤيته، ولكن تمكن بعض المراقبين الذين انتشروا لمراقبة الشاطئ وفق خطة سادر من رصدهم، فسارعوا بالتراجع نحو التل وأبلغوا سادر ورابون.

فقال سادر لرابون والآخرين: "لندع هؤلاء القادمين من الغرب يتقدمون وكأننا لا نعلم بوجودهم، فهم إما سيهاجمون رجالنا الذين يقاتلون عند الشاطئ، وإما سيهاجموننا هنا على هذا التل، وهم في الحالين يحسبون أنهم يأخذوننا على غفلة، ولكن سنرى مَن يُفاجئ مَن".

بعد نزول أصحاب الأطواف من أطوافهم في الغرب، توجهوا شرقًا، وهدفهم الواضح هو مساندة رفاقهم عند الشاطئ، لكنهم حين شاهدوا سادر

ومن معه فوق التل، خمنوا أنهم القادة، أو عدد من المقاتلين يتربصون إعياء رفاقهم عند الشاطئ لينقضوا عليهم، فرأوا أن يميلوا على الواقفين على قمة التل أولًا، وبعد القضاء عليهم يتوجهون نحو الشاطئ لمساندة رفاقهم هناك، فيهاجمون عدوهم من الخلف، ويتم الإطباق عليه من الجهتين.

وهكذا توجه أصحاب الأطواف القادمون من الغرب نحو التل، وحين وصلوا إلى أسفل التل، وبدؤوا بتسلقه نحو سادر ومن معه، صاح سادر بإحدى المجموعتين المستترتين وراء التل يطلب إسراعهم بالصعود إليه، وطلب من رابون قيادة المجموعة الثانية والالتفاف حول التل، ومباغتة أعدائهم الذين بدأوا بتسلق التل من خلفهم، لتطبق المجموعتان عليهم من أعلى التل ومن أسفله.

وأسرع رجال المجموعة الأولى إلى قمة التل، ووصل عدد منهم قبل وصول أصحاب الأطواف، فانحدر سادر يقودهم صوب أعدائهم الذين اقتربوا من بلوغ القمة، بينما أطبقت المجموعة الثانية بقيادة رابون على أصحاب الأطواف من خلفهم من أسفل التل، فتفاجأوا بهذا العدد الكبير من الرجال من أمامهم ومن خلفهم، فحبطت عزيمتهم، وتبعثر هجومهم، وأخذوا يفرون غربًا نحو أطوافهم، فحُسم الأمر سريعًا على التل لصالح سادر ورابون ومجموعتيهما، عندها أمر سادر رجال المجموعتين بالتوجه نحو رفاقهم عند الشاطئ لمساندتهم، فانطلقوا يتقدمهم سادر ورابون، وحين رآهم رفاقهم الذين أنهكهم القتال، اشتد بأسهم، وارتفعت هممهم، وعلت أصواتهم بهتافات الحماسة، وانقضوا مع رفاقهم الذين التحقوا بهم كالطيور الكواسر على أصحاب الأطواف، ففر هؤلاء غربًا نحو رفاقهم، وأدركوهم قبل إبحارهم، فركبوا معهم الأطواف التي بالكاد استطاعت حملهم، وأبحروا مبتعدين عن الشاطئ.

كانت خسائر القبيلتين سبعة قتلى وستة عشر مصابًا، أما أصحاب الأطواف فسقط منهم عشرة قتلى وأحد عشر مصابًا إصابة خطرة، أما مصابيهم الذين لم تفقدهم إصاباتهم وعيهم وقدرتهم على الحركة، فقد فروا مع من فر من رفاقهم وبمساعدتهم. وأراد رابون أن يذفف على جرحى أصحاب الأطواف، فاعترض سادر على قتلهم، وطلب أخذهم مع جرحى القبليتين إلى نساء القبيلة الغربية للعناية بهم.

وكانت جُل إصابات جرحى أصحاب الأطواف هؤلاء في الرأس، وتوفي ثلاثة منهم خلال اليومين التاليين، بينما ظل البقية يتلقون الرعاية على أيدي نساء القبيلة الغربية، في كوخ خُصص لهم وحدهم.

ومرت خمسة وعشرون يومًا ظل خلالها سادر وقبيلته على الجانب الغربي من النهر، مرابطين فوق التلال، إلى جانب رجال القبيلة الغربية؛ تحسبًا لهجومٍ ثانٍ.

ومع مرور الوقت، أخذت حالة جرحى أصحاب الأطواف بالتحسن واحدًا بعد الآخر - شأنهم شأن جرحى القبليتين - وبدأوا باستعادة توازن وعيهم، فطلب سادر حجزهم في أحد الأكواخ محكمة البناء، وتناوب عدد من رجال القبيلتين على حراسة الكوخ.

خلال تلك المدة كانت هناك مجموعات رتبها سادر تتناوب الحراسة صباح مساء، وظل رجال القبيلتين متماسكون، لكن مع مرور الوقت وانطواء الأيام، بدأ بعض رجال القبيلتين بالتململ من الاستعداد المستمر، وتذمروا من حالة التيقظ المتواصل، وطالبوا بالعودة إلى مألوف الحال، ولمّا أبدى رابون قبوله بمطلبهم، لم يَجِد سادر من الرضوخ له بُدًّا، على الرغم من عدم تسليمه بزوال الخطر، لكنه اشترط خمسة أيام أُخَر، تستمر خلالها حالة التيقظ والاستعداد، لمزيد من التثبت من أن ليس هناك ما يدعو للقلق، مؤكدًا أنه سيعود بعدها مع

قبيلته إلى أرضهم على ضفة النهر الشرقية، فقبل المتذمرون على مضض بخمسة أيام إضافية.

وحين علم دار صديق رابون بما تم، خَفَّ إلى رابون وقال له: "هل سيبقى سادر خمسة أيام أخرى؟"

فأجاب رابون بهدوء: "نعم، لقد طلب خمسة أيام لكي.."

فقاطعه دار: "لقد أخطأت يا رابون، نعم أخطأت، وأنا كنت مخطئًا مثلك لأني لم أتنبه إلى تعاظم حب رجال قبيلتنا لسادر، وهذا أمر لا يقل خطورة عن تهديد أصحاب الأطواف".

كان رابون متكئًا بمرفقه على الأرض، فلمّا سمع مقالة دار استوى جالسًا وقال: "كيف قلت؟ نعم لاحظت محبتهم لسادر ولكن.."

فقاطعه دار مجددًا وقال: "ربما لا يكون هذا خطرًا كبيرًا على القبيلة، لكنه بلا ريب خطر عليك أنت يا رابون.. أعلم أنك دومًا متعجل ولا تقوى على الصبر، لكن عليك الآن أن تهدأ وتفكر مليًا قبل أن تصنع أي شيء"، قال رابون بحدة: "هل تعني أن رجال القبيلة إذا أحبوا سادر سيجعلونه زعيمًا لهم مكاني؟"

فأجاب دار بثقة: "حتى لو لم يفعلوا، فمحبتهم لزعيم القبيلة الشرقية ليست في صالحك، ولقد اشترطنا منذ البداية عودتهم إلى أرضهم بعد قتال أصحاب الأطواف، ولا زلنا نريد عودتهم إلى أرضهم، لكن عودتهم لم تعد كافية لوحدها لدفع الخطر؛ لأننا لا نعلم ما قد يحدث بيننا وبينهم غدًا، فكيف بنا حينها وقد صار لسادر بيننا أنصارًا".

قال رابون وقد انخفض صوته عن ما كان عليه: "قد تكون محقًا يا دار"، وصمت قليلًا قبل أن يضيف بتحفز والغيظ يفيض من صوته: "سوف أطرده الآن هو وقبيلته".

قال دار: "لا، لا تفعل، إن مَن سيرضون من قبيلتنا عن طردك لسادر ما هم إلا قلة، أما جُلهم فيرون سادر سلاحًا يدرؤون به خطر أصحاب الأطواف، وسيسخطهم طردك له.. أرأيت كيف تتعجل في كل أمر دون تدبر؟! ثم يجب عليك التنبه لشيء هام، وهو أنك تبدو منهكًا على الدوام في الأزمنة الأخيرة، ولم تعد ذلك الرجل القوي المرهوب الذي اختارته القبيلة زعيمًا لها، فاحذر غضبة رجال القبيلة، وارتقب اجتراءهم عليك إن أغضبتهم.. ربما ظننتَ أن كونك أخو زعيم القبيلة السابق هو ما جعلك زعيمًا للقبيلة، نعم هذا ساعدك في أن تخلف أخاك، لكن ما تغفل عنه هو أنك لو لم تكن قويًا يهابك الآخرون، لتجاوزوك إلى غيرك، كما تكرر كثيرًا في سالف أيام القبيلة عند الصراع على الزعامة، وقد بدأت قواك بالوهن مع تقدمك في العمر، ومع إجهادك المستمر، الذي لا أظنه إلا من ملاحقة النساء، فإذا طرأ ما يغضب القبيلة منك وأنت على هذه الحال، فلا تدري ما قد يقدمون عليه."

-"ما كل هذا الكلام أيها الأحمق؟! أنت رجل ثرثار يا دار، ولا ألوم الجميع في تحاميهم الجلوس معك رِفقًا بأسماعهم، ولولا ثقتي بك لما تحملت من ثرثرتك كلمة".

-"طالما وأنت تثق بي فانصت إليَّ جيدًا.. ما كان عليك أن تقبل بقاء سادر ورجاله خمسة أيام أخرى، لكن أَمَا وقد قبلت، فعليك أن تترك الأيام الخمسة تمضي بهدوء، حتى يرحل سادر من تلقاء نفسه دون مشاكل، عندها تجد لك وبروية تدبيرًا للخلاص منه".

-"حسنًا يا دار، أتمنى من الشمس العالية أن تمر هذه الأيام الخمسة بسرعة قبل أن يبلغ غضبي ذروته".

في المساء عَلِم سادر أن غالبية الأسرىٰ قد أصبحوا بحالة ذهنية ممتازة، فرأىٰ أن الوقت قد حان لاستنطاقهم، واستجلاء خبر أصحاب الأطواف، ومن أين جاؤوا.

وفي اليوم التالي كان سادر في الكوخ الذي يُحْتَجَز فيه الأسرىٰ الثمانية يحاول استجوابهم، وأذهله تحدثهم بلغة لا يفهمها، وأنهم لا يعون ما يقول، فغادر الكوخ دون أن يظفر منهم بكلمة واحدة يفهمها. وكان حديث القبيلتين ذلك اليوم هو الكلام الغريب لأصحاب الأطواف، وشرَّقَت تفسيراتهم وغرَّبَت، فمن قائل أن أَلْسِنَةَ أصحاب الأطواف قصار لا تحسن الكلام، ومن قائل أن اللعنة قد حاقت بهم فعجزوا عن الكلام المفهوم، وما شابه ذلك من التفسيرات.

وفي صدر مساء ذلك اليوم سُمعت جلبة وصراخ من جهة كوخ الأسرىٰ، فهُرِع سادر وبعض رجال القبيلتين إلىٰ المكان، ووجدوا حارسا الكوخ المناوبان ممدان علىٰ الأرض، وعرفوا منهما بأن الأسرىٰ انقضوا عليهما وانتزعوا هراوتيهما وضرباهما، ثم فروا باتجاه الشاطئ، فأسرع سادر ومن معه إلىٰ الشاطئ ولم يجدوهم، لكنهم لاحظوا أن عدد الأطواف التي جاء علىٰ ظهرها أصحاب الأطواف قد نقصت طوفًا واحدًا، فأدركوا أن الأسرىٰ أفلتوا من أيديهم.

كان كل ذلك يحدث أثناء مهلة الأيام الخمسة، وقد مضت منها ثلاثة أيام، وسيكون علىٰ سادر والقبيلة الشرقية بعد يومين مغادرة أرض رابون وقبيلته، والعودة إلىٰ الضفة الشرقية للنهر.

التحق رابون وحكيم قبيلته ماس وعدد كبير من رجال القبيلتين بسادر ومن معه عند الشاطئ، وبعد أن عرفوا ما جرىٰ قال رابون بغضب: "لقد كنتُ منذ

البداية أريد قتل أولئك الجرحى، لكن سادر خالفني الرأي، وجعلنا نعتني بهم ونطعمهم جزاء قتلهم لرجالنا، وها هم الآن قد فروا، وسيعود أصحاب الأطواف بعدها لمهاجمتنا، لأن بقاء الجرحى لدينا كان يمنعهم من مهاجمتنا، تحسبًا من انتقامنا من رفاقهم الذين في قبضتنا، وكل هذا من سوء تدبير سادر".

فوجئ سادر بحدة رابون عليه، ولخص وجهة نظرة قائلًا: "لقد قتلنا من أصحاب الأطواف أكثر مما قتلوا من رجالنا، ثم أننا لا نتحسر على عدم قتل جرحى عاجزين عن القتال أصبحوا في قبضتنا، فليس من شيم الشجعان مواجهة الضعفاء يا رابون. أما القول بأن وجود الجرحى في قبضتنا كان يرد أصحاب الأطواف عن مهاجمتنا، فالعكس هو الصحيح، لأن وجود أولئك المصابين عندنا هو أشد ما يمكن أن يدفع رفاقهم إلى مهاجمتنا بغية استنقاذهم".

قال ماس حكيم القبيلة الغربية: "إن سادر محق يا رابون، لا بد أن أصحاب الأطواف كانوا يفكرون في افتكاك رفاقهم من قبضتنا، ولذلك فهروبهم الآن قد يجنبنا التعرض لهجوم آخر نحن في غنى عنه".

قال رابون: "تقولون أن فرار الجرحى قد كفانا هجومًا من أصحاب الأطواف لاستنقاذ مصابيهم من أيدينا، ولكن ما يُدري أصحاب الأطواف بأننا نحتفظ برفاقهم المصابين أحياء؟! لن يتوقعوا أبدًا أن الحمق سيبلغ بنا إلى الإبقاء على مصابيهم وإطعامهم والعناية بهم".

قال سادر بحزم: "لقد أغلظت القول يا رابون، لم يكن الإبقاء على الجرحى حمقًا، بل من أفعال الرجال الشجعان، ثم إذا كان أصحاب الأطواف كما تقول لن يتوقعوا أننا سنبقي على رفاقهم أحياء، فكيف تقول أنهم الآن سيهاجموننا بعد أن كانوا يمسكون عن الهجوم تخوفًا على رفاقهم الأحياء عندنا؟! ثم تتكلم عن الحُمق! ولقد أمسكت عن الرد عليك احترامًا لرجال قبيلتك".

غادر رابون المكان حَنِقًا، وتوجه نحو كوخه ونظرات الغضب تتطاير من عينيه.

كان بين جَمْع الرجال الذين حضروا عند الشاطئ ثلة من رجال القبيلتين من ذوي العقل والبأس، وكان جُل رجال القبيلة الغربية ممن شهد الموقف قد أخجلهم طيش زعيمهم رابون، ورأوا في كلامه ذاك وأمام ذلك الجمع وقاحة ليس لها ما يبررها، وحاول بعضهم تلطيف الموقف بالاعتذار من سادر، فأجابهم بأنه يعذر رابون، وأنه يعلم أن الأحداث التي مرت ربما أثرت في صبر الجميع، وأكد لهم ثقته بأن رابون سرعان ما سيراجع نفسه ويعود إلى سابق عهده.

ولم يكد سادر يكمل كلامه حتى أقبل رابون، وتوقف بقرب الجمع المحيط بسادر، وقال بحدة كمن يتفجر بعد كظم الغيظ: "لقد تماديت يا سادر في أخذ مكان القيادة، ونسيتَ أنني من نصبك قائدًا للقبيلتين، ونسيتَ أيضًا أن ذلك كان أثناء مواجهتنا لأصحاب الأطواف فقط، فَكُفَّ عن التصرف وكأنك القائد ونحن مجرد أتباع، فأنا زعيم القبيلة الغربية، وقبيلتي هي الأكثر عددًا، وهي من تحملت العبء الأكبر في صد أصحاب الأطواف والتغلب عليهم، كما أنك تقف الآن على الجانب الغربي للنهر، أي على أرضي، واعلم يا سادر أنني.."

قاطعه ماس حكيم القبيلة الغربية قائلًا: "كفى يا رابون، هل أصاب عقلك مكروه؟! كيف تقول لأصدقائنا مثل هذا الكلام وأنت من طلب منهم القدوم إلى هنا لمساندتنا؟ لقد اعتقدنا أنك ستعتذر عن ما بدر منك منذ قليل"، قال رابون: "أعتذر عن ماذا يا ماس؟ ماذا جرى لعقلك أنت؟ أنا رابون.. زعيمكم".

وراح رابون يُنقِّل خُطاه على مهل بين الواقفين، وكان جُلهم من قبيلته، ويتملّىٰ النظر في وجوههم على ضوء القمر، علَّه يجد فيها ما ينم عن اعتراض على ما يعتبره إساءة له، ثم قال: "لماذا لا تتكلمون؟ ماذا جرىٰ لكم؟ هل خدعكم سادر وقبيلته عُبَاد الماء؟" ثم صرخ: "اللعنة على سادر وقبيلته".

أراد ميراك بن سادر أن يرد قائلًا: "لم نكن.."

فقال سادر مقاطعًا: "لا يرد عليه منكم أحد".

عندها تدخل رجال القبيلة الغربية معترضين على تجاوزات قائدهم بحق سادر وأفراد قبيلته، طالبين منه أن يكف لسانه عنهم، وأن يذهب إلى كوخه حتى يهدأ، فقال لهم رابون: "حسنًا أيها الأوغاد، عوضًا عن طرد هذا المخادع ورفاقه عبدة النهر، تطلبون مني أنا زعيمكم مغادرة المكان! وحق الشمس العالية لقد كان دار أعلم مني بكم وبهذا المخادع، وها أنتم أولاء تجترئون علي، وها أنتم أولاء تنصرون سادر المخادع، كما توقع دار بالتمام".

قطع سادر صمته بنبرة مَن أفلت من حبال الصبر بعد طول عناء، وقال: "لقد جاوزت بكلامك كل حد، لستُ مخادعًا يا رابون، وما جئنا إلى هنا إلَّا بطلب منك أنت، وكنا سنغادر إلى الضفة الشرقية بعد يومين اثنين فقط، لكن بعد ما سمعناه الآن سنغادر في الحال".

قال رابون مُعلقًا: "إذن ستحسنون صُنعًا"، وغادر المكان مُتوجهًا إلى كوخه.

أما سادر فأمر ابنه ميراك أن يبلغ جميع أفراد قبيلته بأن عليهم العودة في الحال إلى أرضهم على الضفة الشرقية، وكلف بومبا بالتوجه إلى مكان إقامة النساء والأطفال، لإبلاغهم أنهم صار بإمكانهم العودة.

قيادة القبيلتين

بعد أقل من ساعة واحدة كان سادر يقف على الضفاف الغربي للنهر، يشرف على عبور رجال قبيلته إلى أرضهم على الضفة الأخرى، فإذا بماس حكيم القبيلة الغربية يلحقه إلى هناك، وبعد أن حيًّا سادر، قال: "أنا سعيد بأنك لم تعبر النهر بعد"، قال سادر بنصف ابتسامة: "هل اشتاق حكيم القبيلة الغربية إلى الحديث معي بهذه السرعة؟" فأجابه ماس كذلك بنصف ابتسامة قائلًا: "الحق أن مبعث سعادتي بوجودك هنا ليس اشتياقي لرؤيتك والحديث معك، وإنما لكي لا تجشمني عناء عبور النهر إليك، فهناك أمر هام أريد أن أحدثك بشأنه"، رد سادر وهو يشيح بوجهه عن ماس: "لا تجهد نفسك يا ماس فقد انقضى هذا الأمر، ولن أقبل بالبقاء هنا.. أريد الذهاب إلى أرضي"، ثم أعاد النظر إلى ماس وأضاف: "لم أعرف ماذا يعني أن تكون لي أرضي إلا اليوم، ولقد انتابني شعور غريب حين كان زعيمكم رابون يُلقِي علي ذلك القول، ويذكرنا بقسوة أننا على أرضكم.. يا له من شعور مُريع يقبض الصدر حين تدرك بأنك تقف على أرض لا يرحب بك عليها أصحابها، تشعر وكأنك أوهن من الورقة الجافة، إنه شعور ربما يجب أن نجد له اسمًا، ولكن ها نحن نعود إلى أرضنا حيث لا يقدر أحد أن يدفعنا إلى ذلك الشعور مرة أخرى، ولا حتى إلى الحاجة لأن نجد له اسمًا".

قال ماس: "أظن أن ما جئتك به الآن من قبيلتنا سيمحو ذلك الشعور الذي ذكرت، فقد أجمعوا أمرهم على شيء يريدونه منك، أو لِنَقُل يريدون تقديمه لك".

-"وما هو؟"

-"يريدونك أن تبقى هنا معهم".

-"ما هذا الهراء؟ هل تريدني أن أبقى هنا بعد أن سمعت كل تلك الإهانات؟! لقد كان اتفاقنا واضحًا منذ البدء بأن نساعدكم في مواجهة أصحاب الأطواف، ثم نعود إلى أرضنا، ألم يكن هذا طلبكم؟ هل نسيت ماذا قال دار ونحن عند الصخرة؟"

-"لا لم أنس، ولكن ذلك لم يكن طلب قبيلتنا".

-"بل كان طلبكم، وكان يجب أن أفهم منذ أن سمعته من دار ذلك اليوم بأنكم لا ترغبون بوجودنا على أرضكم، وأنا الآن عائد إلى أرضنا التي اتفقت قبل ذلك معك أنت يا ماس بأن النهر هو علامة الفصل بينها وبين أرضكم، أنت دون غيرك يجب أن تتذكر هذا الاتفاق وتحترمه".

-"دعني أوضح لك، أنا لا أدعوك إلى نقض الاتفاق، سيبقى النهر فاصلًا بين القبيلتين، ولكن رجال قبيلتنا أجمعوا على اختيارك قائدًا.. يقولون أن وجودك كقائد لهم يجعلهم يشعرون بالاطمئنان؛ وذلك لعلمهم حينئذ أن هناك من هو متنبه لما يجب فعله، ويبادر إلى تنفيذه، ولا بأس عندهم في مغادرة قومك إلى حيث يقيمون على الضفة الشرقية إن أرادوا، وتبقى أنت ومن تريد من قبيلتك هنا معنا، فتكون زعيمنا وزعيم قبيلتك في آن.. زعيم القبيلتين".

كان سادر مأخوذ بما سمع، فلم يكن في حُسبانه ولا لاح في خياله، أن تدعوه القبيلة الغربية يومًا إلى احتلال مكان القيادة عندهم، حتى بعدما طلبوا منه قيادتهم في مواجهة أصحاب الأطواف؛ فذلك أمر مؤقت وبرضى قائدهم، يختلف عن إزاحة قائدهم وأخذ مكانه.

خرج سادر من حالة الذهول وأدار الفكرة في رأسه بسرعة، ثم قال: "انصت يا ماس، لقد وعدتكم أن نعود إلى أرضنا بعد دحر أصحاب الأطواف، وهذا ما

سأفعله، فأنا لست كذابًا ولا غدارًا، وكما ترى ها هم رجال قبيلتنا يعبرون النهر نحو أرضنا وفاءً بالوعد الذي قطعتُه".

-"لم أقل أن.."

قال سادر مقاطعًا: "لقد سمعت مقالتي يا ماس، فانصرف لشأنك أو ابق حيث أنت". وقفز سادر في النهر وبدأ بالسباحة نحو الضفة الشرقية دون انتظار عبور كافة رجال قبيلته كما سبق له العزم، ولحقه من تبقى منهم والشوق للقاء أسرهم يسوقهم.

وفي اليوم التالي أخذ رجال القبيلة الشرقية بعد لقائهم بأسرهم يروون للنساء والأطفال أقاصيص البطولة في مواجهة أصحاب الأطواف، وما لاحظوه عن أولئك المهاجمين وقائدهم المرعب، ويعيد كل واحد منهم رواية بطولاته مرات ومرات، وكانت قصص البطولة تلك تنمو كل مرة تُعاد فيها الرواية، حتى راح الكثير منهم يروون مآثرهم لرفاقهم وكأنهم لم يشهدوا الحدث معهم.

أما على الضفة الأخرى، فقد بلغ دار الحوار الذي جرى في المساء عند النهر بين سادر وماس، فأسرع بإبلاغ صديقه رابون أن زعامته باتت في مهب الريح كما سبق له أن حذره، فبادر رابون وهو يكاد يتميز غيظًا إلى الدعوة لاجتماع عدد من رجال القبيلة الغربية، من الفاعلين والمؤثِّرين في حياتها، وحين اجتمعوا بادرهم بالتعنيف والسباب، وفي ظنه أن الأمر يمكن تداركه، لكنهم أكدوا له رغبتهم في تنصيب سادر زعيمًا لهم، فأُسْقِطَ في يده، وتبين له أن مكانته في القبيلة قد تداعت بالكامل، وقرر وهو في ذروة الغيظ أن يَهْجُر القبيلة ويتوجه صوب منطقة الشلال، مفضلًا التشرد على أن يشهد قبيلته وهي تحط منزلته، وتدعو رجلًا آخر لتنصيبه قائدًا لهم، وكانت لا تزال لديه بقايا أمل أن يلحقه بعض رجال قبيلته لمحاولة ثنيه عن المغادرة، يُمنِّيه بذلك عدم استجابة سادر لطلب

تسويده على القبيلتين. وجاهد صديقُه دار لإقناعه بالعدول عن الرحيل، فلم يستجب رابون له، فقرر دار الرحيل معه.

وبُعيد ظهيرة اليوم التالي على الضفة الشرقية، وصل ماس وبصحبته رجلان من القبيلة الغربية، يعرضون على سادر زعامة القبيلتين كرَّة أخرى.

وقال ماس دونما مقدمات: "يا زعيم، لقد كنت بالأمس تقول لنا بأنك لن تخلف الوعد الذي قطعته على نفسك وقبيلتك بالعودة إلى هنا بعد انتهاء مواجهة أصحاب الأطواف، وها أنت ذا قد بررت بالوعد، وصدَّق فعلك قولك، وجئناك الآن لنخبرك بأن أبناء قبيلتنا قرروا أن يعبروا النهر إليك إذا لم تأتهم أنت، ونودُّ أن نخبرك أن رابون ترك القبيلة وغادر، ولم يعد ما يبرر تمنّعك.. ليس في مقدور القبيلة يا سادر أن تظل بلا قائد، ولقد اختارك أبناءها قائدًا لهم، فلبِّ النداء".

كان نبأ رحيل رابون مفاجئًا لسادر، فقال متسائلًا: "كيف ترككم رابون؟" أجاب ماس: "لقد غادر مُغضبًا، ونُقِلَ إليَّ قولَه قبل مغادرته بأنه لن يتوقف إلا عند الشلال. إنه دائم التسرع ولا يصلح للقيادة، وقد غَرَّنا منه فيما مضى كونه أخو قائدنا السابق، وأنه كان ذو قوة، لكنه حتى في سابق عهده لا يدانيك في مقدرتك على القيادة".

لم يعلق سادر على ما سمع، فقال ماس: "ستأتي قبيلتنا بأكملها إلى هنا قبل غروب شمس هذا اليوم، إن لم تسبقهم أنت وتعبر إليهم، فما قولك؟" ثم أضاف ماس مستبقًا رد سادر: "ولا تستهن بنا، لقد تركتني وأنا أحدثك البارحة عند الشط فعذرناك لصدقك ووفائك بالوعد، أما الآن بعد عودتك إلى هنا، وبعد مغادرة رابون، فلم يبق لك ولا لأبناء قبيلتنا عذر"، قال سادر: "إنك تكثر من ترديد أنهم يريدونني ويختارونني، ولا تقول نريدك أو نختارك، فهل

هذا يعني أن لك رأيًا آخرًا غير ما تراه قبيلتك؟" ارتبك ماس وابتسم ابتسامته البريئة من البراءة وقال: "بل أنا معهم في ما يريدون".

قال سادر: "إذن أمهلوني لأفكر، فهذا أمر كبير وخطير، ولا أستطيع الموافقة عليه من دون تدبّر وتشاور"، نهض ماس وقال: "حسنًا، سنتركك الآن يا سادر ونعود إلى قبيلتنا، وعلى كلٍ إذا لم تقبل بما جئناك به، فستأتيك قبيلتنا قبل هبوط الليل، وإن شئت مشورتي فمن الأجمل لك أن تذهب إليهم قبل أن يأتوك، لأنهم إذا جاؤوا سيكون من العسير عليك إعادتهم إلى الجانب الغربي إلا وهم يصحبونك، فاقبل عن طيب خاطر، بدلًا من القبول مُرغمًا".

-"لا يستطيع أحد إرغامي على شيء يا ماس".

-"إذا جاؤوا سيرغمونك بغير قتال.. لن يبرحوا الضفة الشرقية إلا وأنت معهم".

ثم غادر ماس ورفيقاه.

تشاور سادر مع المقربين منه مثل صفيِّه هميان، والحكيم رفيق النهر، ومادو الحاذق، وبومبا، واستقر الرأي بعد التشاور على قبول سادر طلب القبيلة الغربية، وكانت رؤيتهم بعد نقاش متشعب تتلخص في أن القبيلة الغربية إن ظلت بغير قائد يجمعها ويقودها فستتفكك، وأن هذا ستكون له تداعيات تخلق مشاكل لقبيلتهم أيضًا، وأول تلك المشاكل هو سقوط اتفاق تقسيم الأرض، وما يعنيه ذلك من تهديد لاستقرارهم؛ إذ لن يكون الغربيون بعد تفككهم طرفًا واحدًا له من يمثل التزامه بالاتفاق، ولا بد حينها بسبب كثرة عدد الغربيين من ظهور مشاكل كثيرة، فكان الإجماع على قبول سادر قيادة القبيلتين، لكن بشروط تعاونوا في صياغة أفكارها.

وطلب سادر من ابنه ميراك ومن الحكيم رفيق النهر أن يُطلعوا كل أبناء القبيلة بما عرضته القبيلة الغربية على سادر، وبقبوله طلبهم مضطرًا، وأنه سيستبق عبور رجال القبيلة الغربية إليه، ويتجه حالًا إليهم وبصحبته هميان وبومبا، ويبلغهم بنفسه هناك قبوله بقيادة القبيلتين.

وهكذا عبر سادر ومرافقاه النهر، وتوجهوا نحو سهل الأكواخ الذي تقيم عليه القبيلة الغربية وراء التلال، وطلب سادر لقاء كل رجال القبيلة الغربية، فحضروا وتحلقوا حوله كالنحل حين يطوق ملكته.

وقف سادر وقال: "أنا أقبل طلبكم بأن أكون قائد القبيلتين، ولكن لي أشياء أطلبها منكم في مقابل قبولي، وهي أشياء ليست لصالحي منفردًا إلا بقدر ما هي لصالحكم جميعًا، وأول ما أريده منكم هو أن نتعاون لنبني كوخًا من الحجارة، ثم يكون على كل رجل من القبيلتين تخطى الرابعة عشرة تقديم وجبة طعام واحدة كل خمسة أيام، لكي أقوم بالاحتفاظ بهذا الطعام الزائد في ذلك الكوخ الحجري الذي سيكون لحفظ الطعام.

وأريد أن نقوم ببناء كوخٍ حجريٍ آخر بجوار الأول لأقيم فيه، وأن يكون هناك سبعة أشخاص من القبيلتين يتناوبون على حراسة كوخ الطعام، وسبعة مثلهم يتناوبون على حراسة كوخي.

وأريد أن يُسّمَع كلامي إذا تكلمتُ ويُطَاع من الجميع، دونما تردد أو نقاش، ويكون لي أن أستشير مجموعة من عشرة أشخاص سنسميهم العشرة أهل المشورة، أختارهم من ذوي الحكمة والأسنان من كلتا القبيلتين، وأطلب مشورتهم فرادى أو مجتمعين متى شئت، ثم تكون لي من بعد الكلمة الفاصلة".

كان ماس يستمع لاشتراطات سادر تلك والحسد يعمل في صدره، فقد كان في حقيقة الأمر غير سعيد بقيادة سادر لقبيلته، وما كان قبوله بذلك إلا لاعتقاده

أن قيادة سادر للقبيلتين ستخدمه مؤقتًا، حتى يرى كيف يصنع، كما أنه أراد مسايرة أبناء قبيلته الذين كانوا يرغبون بتنصيب سادر قائدًا لهم.

وحين أكمل سادر إلقاء مطالبه قال ماس: "ولم لا تريدنا أن نناقشك فيما تقول يا سادر؟"

فأجاب سادر: "سمعتم قولي ولن أعيده مرة أخرى، فإما أن توافقوا على ما طلبت، وإلا فسأعود في الحال من حيث جئت".

تعالت الصيحات: "نحن نثق بك، نحن نثق بك".

فرفع سادر صوته قائلًا: "إذا لم أسمعكم جميعًا تقولون أنكم توافقون على ما طلبت، فهذا يعني أنكم لم تقبلوا".

فتعالت الصيحات من كل صوب: "نقبل، نقبل، نقبل" حتى ماس قال بنبرة جافة: "نقبل" وطأطأ رأسه ينظر الأرض متفكرًا، فيما راح القوم يهتفون بحماسة: "سادر، سادر، سادر".

وقام سادر بتسمية المستشارين العشرة من القبيلتين، وجعل جُلهم من القبيلة الغربية، وقد كان تعرف على الكثير منهم في الفترة الماضية، أثناء تواجده بينهم في أعقاب المواجهة مع أصحاب الأطواف.

وقد كان هناك مسنون من رجال القبيلتين، فقد ساعدت وفرة الطعام – سواء بالنسبة للقبيلة الشرقية أثناء تنقلها أو القبيلة الغربية المستقرة – على مَدّ متوسط أعمارهم، إلا أن اختيار سادر للحكماء العشرة أهل المشورة لم يكن مبنيًا على السن فقط، بل على الحكمة والمكانة والفطنة أيضًا.

عاد هميان رفيق سادر الدائم إلى القبيلة الشرقية يحمل لهم نبأ تمام الأمر لسادر، ويبلغهم أن سادر يطلب منهم المجيء مع أُسرهم إلى أرض المُقام الجديدة على الجانب الغربي من النهر.

لم يحن المساء إلا وقد اختار سادر له مكانًا يقيم فيه وسط سهل الأكواخ، وبعد أن استيقظ في الصباح جاءه ماس يزوره ويهنئه في أول أيامه زعيمًا للقبيلتين، ويهدي له بعض الفاكهة، وقال بأنه يدعو الشمس العالية لتسدده في قيادة القبيلتين، ثم طلب الإذن في طرح تساؤلين، وكان التساؤل الأول عن فائدة تقديم كل رجل وجبة طعام لسادر كل خمسة أيام، والتساؤل الثاني عن معنى بناء غرفة من الحجارة، أو كما يدعونها كوخًا من الحجارة، وذكر أنهم لم يسمعوا من قبل بكوخ حجري، وأن الأكواخ تكون فقط من الخشب.

فأجاب سادر: "مُرادي من جَمّع هذا الطعام ليس لكي يكون لي أنا والحراس فقط، بل الأهم هو أن يكون لدي طعام أقدمه للمريض والعاجز وكبير السن وغيرهم ممن تجب مساعدتهم، وكل واحد منا يتناول وجبة أو وجبتين كل يوم، فما الضير في أن يقدم كل خمسة أيام وجبة طعام واحدة فقط؟ أما الكوخين الحجريين فسأقيم في أحدهما، وسيكون الكوخ الآخر لحفظ الطعام حفظًا جيدًا لا يفسد معه الطعام، وليكون الطعام بداخل الكوخ بعيدًا عن أيدي العابثين.. نعم أوافقك بأننا لم نر أحدًا من قبل يصنع أكواخًا من الحجارة، لكنها ستكون أقوى الأكواخ على الإطلاق، وسنستخدم الحجارة المتناثرة في السهول الغربية لبنائها".

-"ولكن تلك السهول قصيَّة بعض الشيء، فكيف سنجلب كل الحجارة اللازمة للكوخين؟"

-"ولهذا طلبت تعاون الجميع، سيكفينا أن يجلب كل رجل حجرًا واحدًا أو حجرين".

وبدأت عملية بناء الغرفتين الحجريتين، مستخدمين في بنائها حجارة بركانية متناثرة في السهول الغربية.

وتم سقف الغرفتين بالأخشاب القوية، حيث قاموا برصها وتثبيتها بالطين، بعد أن خلطوه بتوصية من مادو الحاذق بِكِسَرٍ صغيرة من الغصون الجافة لتقويته.

انتظم الأربعة عشر حارسًا الذين وقع اختيار سادر عليهم في نوبات حراسة مسكنه، وحراسة مخزن الطعام، بحيث يكون هناك طوال اليوم اثنان منهم يحرسان المخزن، واثنان يحرسان مسكن سادر ويرافقانه في تحركه إن طلب منهم مرافقته.

والتزم الجميع بتقديم وجبه واحدة للمخزن كل خمسة أيام، وكان يتم تعليق اللحوم في المخزن على حبال من أغصان ولحاء الأشجار، لكي تجف فتبقى أطول فترة ممكنة دون أن يصيبها الفساد.

وكان سادر يقوم بتوزيع ما يُجمع من طعام على المرضى وكبار السن وغير القادرين على تأمين الطعام، كما يعطي من ذلك الطعام لأسرته ولحُرَّاسِه وأُسرهم.

مرت عشرة أيام على بناء الغرفتين وانتظام ما رتبه سادر في القبيلتين، وقبل غروب شمس اليوم العاشر كان سادر يجلس داخل غرفته هو وزوجته ناشا وابنه ميراك، وعندهم ظريف، ومادو الحاذق، والحكيم رفيق النهر، وأخبرتهم ناشا بأنها لاحظت أمرًا يتعلق بسلوك زوجة حكيم القبيلة الغربية ماس، وهو أن رجلًا آخر كان يقيم معها طوال اليومين المنصرمين، وأنها رأتهما يخرجان معًا من الكوخ والرجل يضع يده على كتفها وهما يمشيان ويتضاحكان.

قال ظريف: "يا لهما من وقحان، لكن طالما وهما يتصرفان كما ذكرتي على مرأى من الناس، فلا بد أن ماس سيعلم بشأنهما".

قالت ناشا: "الغريب أن ماس يعلم بكل شيء، فقد كان ينظر إليهما وهما يخرجان من الكوخ ويمشيان على النحو الذي قلت لكم، ومع ذلك لم يبدر منه أي اعتراض، ولا حتى بدا عليه الامتعاض".

قال ظريف: "إذن فالحكيم ماس هذا أغرب من زوجته اللعوب".

قال مادو الحاذق: "وأنا لاحظت أمورًا أخرى غريبة في القبيلة الغربية.. إلى الآن لم أرَ أي منهم مع ولده، ولا أعرف مَن منهم والد مَن، ولا مَن منهم ابن مَن!"

قال سادر: "لم أفهم ماذا تقصد يا مادو!"

- "أعني أننا لا نعرف والد أي فرد منهم، هل تعلم أنت بوالد أي شخص من القبيلة الغربية؟"

-قال سادر: "صدقت يا مادو، لا نعرف بينهم هذه القربى، وحين هرب رابون وأخبروني بأن أخاه الوحيد توفي منذ زمن، خطر لي بأن رابون بلا أبناء يسندونه، وظننت أن الأمر مقتصر عليه وحده، لكن يبدو أن هناك أمر أكبر وأعم".

قال ظريف: "هل تريدون دفعي إلى الجنون! كيف ليس لهم آباء؟ إن لم يكن لأفراد القبيلة الغربية آباء فمن أين جاء كل هؤلاء الأطفال الذين نراهم ونسمع صراخهم كل يوم؟ بل من أين أتى آباءهم من قبلهم؟"

قال سادر: "هناك أمر ما لم نفهمه بعد، ويجب أن نفهمه".

تدخل ميراك متوجهًا بالسؤال إلى والده: "هل أسأل أحد الحراس المتواجدين من القبيلة الغربية عن هذا الأمر، إنهم غير بعيد في الخارج؟" أجاب سادر بسرعة وحزم: "لا، هذا قد يثير لغطًا بين الحراس، وربما يستثير كل القبيلة الغربية، والأسلم أن أجد غدًا من رجال القبيلة الغربية من أستطيع الاستعلام

منه بذكاء عن هذا الأمر المحير، وأنتم إن استطعتم فعل ذات الأمر فافعلوا.. ولكن بحذر ودونما فجاجة".

قال ظريف: "حسنًا يا زعيم." وأضاف معلقًا على نفسه: "لقد بدأنا نقول كلمة "زعيم" وكلمات أخرى من كلام القبيلة الغربية"، فقال الحكيم رفيق النهر متنهدًا: "أخشى أن تتعلموا منهم ما هو أخطر من الكلمات".

فأنهى سادر النقاش بالقول: "لقد دنى الغسق، فدعونا من كل هذا وليذهب كل منكم إلى كوخه، وغدًا نجتهد في ما اتفقنا عليه، وأنتِ يا ناشا تَحَرِّي من بعض نسائهم كذلك، نريد أن نعرف مع من نحن نعيش".

في الصباح، وتنفيذًا لما اتفقوا عليه، ذهب كل منهم يتقصى ويتحرى بحرص، وعند الظهيرة التأم شملهم في غرفة سادر وقد هالهم ما اكتشفوه، فقد وجدوا أن القبيلة الغربية لم يكن لديها زواج ولا ارتباط منظم بين المرأة والرجل، وأن المرأة عندهم ليس لها رجل محدد ترتبط به، ولذلك يكون الأبناء بلا آباء معروفين، وتكون تنشئة الأطفال من مسؤولية أمهم، يسندها ويوفر لها الحماية إخوتها أبناء أمها، وأن هذا هو شكل الأسرة في قبيلتهم.

وبعد أن طرح كل واحد من المجتمعين ما توصل إليه، وتداولوا في ما اكتشفوه، قال ظريف: "يا زعيم، إن هذه القبيلة أقرب للحيوانات منها للبشر، وإن شئت الحق فأنا لا ألوم أبناء قبيلتنا الذين بدأوا بالتذمر حين عرفوا حقيقة هذه القبيلة التي يعيشون معها".

قال سادر: "متى عرف أبناء قبيلتنا بهذا الأمر؟"

-"اليوم، لقد أخبرت بعضهم، وأظن أنهم بدورهم أخبروا كثيرين.. كانوا سيعرفون اليوم أو غدًا".

قال الحكيم رفيق النهر: "لا نستطيع لوم أبناء قبيلتنا إن جفلوا من الاختلاط بهؤلاء القوم والحياة معهم على صعيد".

قال سادر بنبرة خافتة وكأنه يكلم نفسه بصوت مسموع: "إذن نحن أمام مشكلة كبيرة، وسرعان ما سيبدأ أبناء قبيلتنا بمطالبتي بالرحيل من هذا المكان والعودة إلى الضفة الشرقية للابتعاد عن القبيلة الغربية، فلمن أنحاز ومع من أعيش وقد صرت قائد القبيلتين؟"

قال ميراك: "إن الحل يا أبتي أن تطلب من أبناء القبيلة الغربية أن يكونوا مثلنا، وينتهون عن هذه التصرفات المشينة، لتكون لهم أسر كأسرنا، فيها الأب والأم والأبناء".

قال مادو الحاذق: "الأمر لن يكون بهذه السهولة يا ميراك، فكما نرى حياتهم غريبة وغير مقبولة، فإنهم سيرون حياتنا بذات الغرابة حين يكتشفون اختلافنا عنهم، ولو طلبنا منهم تغيير حياتهم لتكون على مثال حياتنا، فسيرون طلبنا هذا كما كنا سنرى مطالبتهم لنا بأن تكون حياتنا على مثال حياتهم".

قال الحكيم رفيق النهر: "إذن فنحن يا سادر كما قلتَ أمام مشكلة كبيرة، فربما أفسدوا حياة بعضنا، وربما نشأت بين القبيلتين مشاكل من جراء هذا الاختلاف، والرأي أن نفارق القبيلة الغربية ونعود إلى مكاننا السابق على الجانب الشرقي من النهر، وتبقى أنت هنا، وبهذا تظل زعيم القبيلتين؛ لأنك إذا انتقلت معنا فستختار القبيلة الغربية لها زعيمًا آخر، أما نحن فحتى وأنت تقيم هنا ونحن نقيم هناك على الضفة الأخرى، فسنبقى مخلصين لك".

قال سادر وهو يدفن وجهه بين كفيه: "لا أريد أن نتعجل يا حكيم، فالمشكلة لا تنحصر في زعامتي، إنها مشكلة تهدد أُسَرَنَا كلها"، ثم أزاح يديه عن وجهه وأضاف: "وأنا أوافقك يا مادو بأنهم سيرون حياة أُسَرِنَا غريبة كما نرى الآن

حياة أُسَرِهِم غريبة، ولكننا أقرب إلى الترابط؛ فالقرابات الوحيدة بينهم هي قرابة الأم، أما نحن فلدينا قرابات الأم والأب معًا، وهذا يفسر ضعف ترابطهم وقوة ترابطنا، ولهذا كله فأنا أستطيع القول بثقة أنه إذا توجب على إحدى القبيلتين أن تتبع حياة القبيلة الأخرى، فإن على القبيلة الغربية أن تتبع حياتنا".

قال مادو: "أحسنت القول يا سادر.. ربما كنتُ قد قلت لكم في وقت سابق بأن لدي اعتقاد بأن أسلافنا عاشوا مع أسلاف القبيلة الغربية قبل زمن بعيد، والآن بعد أن عرفنا عدم وجود الزواج في حياتهم، فهناك سؤال جديد لدي، وهو كيف فقدت القبيلة الغربية الزواج؟" قال سادر: "إذا كان أسلافنا وأسلافهم قد عاشوا معًا منذ زمن بعيد، فقد يكون توقُّف أسلاف القبيلة الغربية عن الزواج هو سبب ابتعاد أسلافنا عنهم، تمامًا كما تريدون الآن مفارقتهم".

قال ظريف بابتسامته الساخرة: "وقد يكون توقف أسلافنا عن عدم الزواج هو سبب الفراق".

قال مادو: "أحسنت يا ظريف مع أنك تقولها ساخرًا، فربما أن هذا هو ما جرى.. إن لم يحدث ذاك الذي قال سادر، فهو هذا الذي قال ظريف".

قال سادر: "ربما كانت قبيلتنا والقبيلة الغربية تعيشان معًا قبل أزمان بعيدة، ثم فرقهما الزواج.. وها هما الآن حين اجتمعتا، يوشك الزواج أن يفرقهما من جديد". صمت سادر والعيون معلقة عليه، ثم أضاف: "لا شك في أن إقناعهم بالتخلي عن ما ألفوه لن يكون سهلًا، بل يكاد يكون مستحيلًا؛ ومع ذلك سأجتهد في العثور على حل لهذه المعضلة، ويجب أن أنجح".

كان سادر يفكر في الاستعانة بماس حكيم القبيلة الغربية؛ لإدراكه أن تغييرًا عميقًا كالذي يطلبه من القبيلة الغربية، لن يُقبل إلا أن يكون مسنودًا من

داخلهم وبمعتقداتهم، مُتذكرًا ما سبق من استعانته بحكيم قبيلته رفيق النهر حين أراد من قومه تجاوز الشلال والنزول إلى الأرض المحرمة، ولذلك كان اعتقاده أن أقدر من يمكنه إسناد تغيير نظام الأسرة في القبيلة الغربية هو رجل دينهم الأول.. حكيمهم ماس.

وكلم سادر ماس في هذا الأمر، وأغراه بأن يجعله خازن غرفة حفظ الأطعمة، فأبدى ماس تخوفه وقال: "لم أعلم بهذا الاختلاف بيننا وبينكم إلا يومنا هذا، ولا أخفيك أن هذا الذي تطلبه يصعب تقبّله حتى إذا أيدتك في طلبه، وربما لن ينتهي الأمر بفشلنا فقط، بل قد تكون نهاية مكاني بينهم كحكيم يثقون به، وربما نهاية قيادتك لهم أيضا" وصمت ماس وكأنه يريد أن يرى وقع كلامه على سادر ثم أضاف: "أريد أن أنبهك لشيء لا أظنك تعطيه ما يستحق من التيقظ، وهو أن رابون وإن كان قد تركنا وذهب بعيدًا، إلا أنه ليس من الرجال الذين يذعنون بيسر ويقبلون الانكسار، فإذا طلبتَ في هذا الوقت من القبيلة الغربية أن يغيروا حياتهم كما تقول، فإنك ستقدّم بهذا عونًا لرابون عليك، وهو الذي لا أحسبه يتأخر في السعي إلى النيل منك، ولذلك فإن نُصحي لك بأن لا تطلب من قبيلتنا هذا الطلب، وإذا عزمتَ على القيام بذلك، فلا تربطني معك فيه".

لم يبدُ على سادر الارتياح لما سمع، لكنه اقتنع على الأقل بتأجيل هذه القضية حتى تترسخ زعامته في القبيلة الغربية.

العودة من الموت

وفي الصباح التالي كان ميراك بن سادر ومجموعة من الفتيان عند النهر يمضون وقتهم في تفكُّه وسرور، وتمارىٰ ميراك مع أحد الفتيان بشأن من منهما الأمهر في السباحة، وقررا التسابق بحيث ينطلقان من ضفة النهر نحو الضفة الأخرىٰ، ثم يعودان من حيث انطلقا، ويكون الفائز مَن يعود أولًا، وبدأ السباق وسط صراخ بقية الفتيان بمرح يشجعون المتسابِقَيْن، وكان ميراك ماهر بالسباحة، فوصل إلىٰ الضفة الأخرىٰ قُبيل رفيقه، ثم استدار للعودة ورفيقه يسبح في إثره بجد، وحين اقترب ميراك من مكان الانطلاق، اشتد عصب إحدىٰ رجليه فلم يعد يقوىٰ علىٰ تحريكها، وبدأ بالغرق والصراخ طلبًا للنجدة. لوهلة ظن الفتيان أن صديقهم السباح الماهر يمازحهم باختفائه تحت الماء، لكن ميراك عاود الظهور من تحت الماء وهو يستغيث بشدة قبل أن يغطس من جديد، فأدرك الفتيان أن الأمر جَد، وحاول الفتىٰ الذي كان يسابقه أن يجده تحت الماء فلم يفلح، فقفز كل الفتيان في النهر للبحث عنه، ولمّا عثروا عليه جرّوه إلىٰ ضفة النهر وهو ينازع، وأسرع أحدهم باستدعاء سادر الذي كان علىٰ مقربة من المكان، فجاء يهرول ليجد ميراك ممدًا عند الشط بلا حراك، وبادر إلىٰ ملاحظة تنفس ابنه، فوجد أن تنفسه متوقف كليًا، فصرخ بغضب عارم: "لقد قتلتم ميراك أيها الخبثاء، أقسم بالنهر العظيم أن أمزقكم أوصالًا"، حاول الفتيان إيضاح الأمر، وأن ما جرىٰ كان حادث غرق أثناء سباق، ولكن كانوا عبثًا يحاولون، فقد كان سادر يزمجر كالوحش وهو يبحث عن أي شيء قريب يصلح كسلاح، وسرعان ما وجد حجرًا مدببًا فالتقطه وانقض علىٰ الفتيان ليفتك بهم، وفجأة أخذ ميراك يسعل ويقذف الماء من جوفه وهو يشرق به، وأخذ يسحب أنفاسه المتحشرجة بصعوبة، فأفلت سادر الحجر من يده واتجه صوب ابنه وهو

يقول: "ميراك، أنت حي، أنت حي"، وجثا سادر على ركبتيه، وأكب باكيًا على ابنه وجسم الفتى يختلج، وأنفاسه تتحشرج، ثم لفظ الفتى قدرًا وافرًا من الماء، وبعدها أخذ تنفسه ينتظم وفتح عينيه، فجذبه والده إليه وأخذ يقبله بحرارة وهو يقول: "الشكر للإله يا بني، الشكر للإله".

لبرهة حدق ميراك بهدوء في وجه والده الذي كان لا يزال يطوقه بذراعيه، وأبعد الفتى ذراعي والده بلطف، ثم على مهل ومعتمدًا بكفيه على الأرض وقف مبتسمًا، وشد قامته وهو يجيل بصره فيما حوله بهدوء بدا للجميع غريبا.

قال له أحد أصدقائه الفتيان: "لقد هاج والدك وكان على وشك أن يفتك بنا، فقد ظنناك مت"، نظر ميراك إلى وجه صديقه وقال: "لقد مت".

قال الفتى لميراك: "كيف مت يا ميراك وأنت ذا واقف على قدميك؟" ثم استدرك الفتى لظنه بأن ميراك لا يزال مُجهدًا بعد ما تعرض له، وقال: "لا عليك، نشكر الإله على نجاتك".

قال ميراك بجد ولكن بهدوء: "أقول لك لقد مت وعدت من الموت، وسأخبركم بما ينتظركم هناك"، ذُهل سادر والفتية مما سمعوا، واقترب سادر من ابنه ولف ذراعه حول وسطه ليساعده على المشي، وقال: "فلنذهب الآن إلى كوخنا يا بني، يجب أن تأخذ قسطًا من الراحة"، فقال ميراك بثقة: "لا تظن يا أبتي بأنني أهذي، لقد مت ورأيت أشياء جميلة وأرض رائعة.." فقاطعه سادر بحزم موجهًا كلامه للفتيان الآخرين: "لينصرف كل منكم لشأنه، وأنا وميراك سنذهب إلى كوخنا"، وهكذا غادر الجميع المكان.

حين وصل سادر وابنه إلى الغرفة الحجرية، كان ميراك لا يزال يجهد لإقناع والده بأنه عاد لتوه من عالم الأموات يحمل رسالة للأحياء، وكانت روايته لما جرى: أنه عندما غرق وجد نفسه في فردوس بديع يحفه الشجر الأخضر من كل

صوب، وترتدي أرضه أنواع الزهور، وأن جمال المناظر التي شاهدها، وروعة الشعور الذي دَاخَله هناك، فوق قدرته على الوصف. وأنه رأى أطفالًا صغارًا شديدي اللطف والبهاء، ذوي أجنحة بيضاء، يطيرون في أجواء المكان بين ضاحك وباسم، وأنه أحس بمحبتهم الكبيرة له. وأضاف أنه رأى أمامه شيئًا يشبه جذع أجوف لشجرة عملاقة، له فتحتان ويتسع لمرور الإنسان واقفًا، وأنه حين دخل من إحدى الفتحتين رأى نورًا ساطعًا يقع عند الطرف الآخر، وأنه عزم على مواصلة التقدم نحو الفتحة الأخرى بعد أن أحس بأن ذلك النور يغمره بالمحبة، إلا أن بعض الأطفال المحلقين جاؤوا وأعادوه برفق إلى الوراء، وكلموه بكلمات لطاف لا يتذكرها تمامًا، لكنه قال بأنها تعني أن واجبه العودة إلى الحياة من جديد، وإبلاغ الناس بأن عليهم فعل الأعمال الصالحات، وأهمها مساعدة الناس وتجنب أذيتهم، فينالوا ذلك الفردوس بعد الممات.

كان سادر قد ظن في البداية أن ابنه يهذي، لكنه سرعان ما دفع هذا الظن بعيدًا، فقد كان جليًا له أن ميراك يتصرف بوعي كامل وعقل صافٍ، كما أن احتمال اختلاق ميراك للقصة لم يكن واردًا، فهو المعروف منذ بواكير صباه بتَحَامِي الكذب، ولا يطال مصداقيته لدى والده وكل من يعرفونه شك.

ومع ذلك اجتهد سادر في ثني ميراك عن إخبار الناس بما رآه عند غرقه، تجنبًا لِهَزِّ ثقتهم في عقل ابنه، لكن تصميم ميراك على القيام بالواجب الذي آمن بأن الإله أوكل إليه أداءه كان قاطعًا، فراح يحدث الناس بما رأى، ويطلب منهم أن يحبوا ويساعدوا بعضهم بعضًا.

كان ميراك بطبيعته من نوع الناس القادرين دون عناء على أن يحوزوا ثقة من يستمع إليهم، كما أنه كان محبوبًا عند القبيلة الشرقية، وعند من تعرف عليه عن قرب من القبيلة الغربية، وعندما أخذ يحدث من يقابلهم من أبناء القبيلتين بما

رأىٰ وسمع يوم غرقه، وبفحوىٰ الرسالة التي يحملها، صدقه الناس وأبدوا تجاوبهم مع دعوته، أما حَكِيمَي القبيلتين، فمع تصديقهما لميراك، إلا أن نظرتهما اختلفت لما جرىٰ له، ولما رآه عندما كاد أن يقضي غرقًا.

فبينما رأىٰ رفيق النهر حكيم القبيلة الشرقية أن ذلك كان من معجزات النهر، رأىٰ ماس حكيم القبيلة الغربية أن الشمس وراء ما جرىٰ لميراك، وأنها هي مَن حَمَّلته رسالة المحبة. ووجد كل من الرجلين حُججًا وطرحًا لدعم دعواه. وكان طرح حكيم القبيلة الشرقية يقول: لو وقعت حادثة ميراك في أي مكان غير النهر لجاز للمجادل الجدال، ولجاز للمشكك الشك، لكن أَمَا وقد وقعت الحادثة في النهر، إذن فمن الواضح أن النهر المقدس هو صاحب هذه المعجزة، وصاحب هذه الرسالة.

أما منطق ماس حكيم القبيلة الغربية، فكان يواجه ذلك الطرح بالقول: إن الشمس العالية وليس غيرها هي من يملك ذلك النور الساطع الذي روىٰ ميراك بأنه رآه، وعليه فإنها ومن غير أدنىٰ شك هي صاحبة رسالة المحبة.

وتحول سجال الحكيمين إلىٰ مبارزات كلامية متعصبة بين أبناء القبيلتين، وانحاز كل منهم إلىٰ حكيمه ومعتقده، وأشرف الفريقان علىٰ الاقتتال، لولا أن تداركهم ميراك بحكمته ومحبته لهم، فحسم هذا الخلاف عندما أخذ يهدئهم وينصحهم ويقول لكل فريق: بأنهم طالما وقد آمنوا بأن معبودهم هو الذي أرسله برسالة المحبة، فإن من حق معبودهم عليهم احترام رسالته، وذلك بالالتزام بها وبكل ما تعنيه، متمسكين بمحبة الجميع ومساعدتهم وتجنب أذيتهم أيًا كانوا، وألح عليهم في طلب التهدئة والانصياع لرسالة المحبة، فاستجاب له الفريقان، وهدأت النفوس بعد المشاحنة، واكتسب ميراك منذ

حادثة النهر، ومنذ إخماده للفتنة التي جاءت في أعقابها، مكانة رفيعة لدىٰ القبيلتين.

ولم يتوقف أمر رِفْعَة ميراك بين القوم عند هذا الحد، بل راح أبناء القبيلتين يطلبون بركاته، ويتمسحون بكل ما له صلة به، ويعتبرونه واسطتهم لدىٰ من يعبدون، فتراجعت كثيرًا مكانة حكيمي القبيلتين، وتلاشت أهميتهما، ولم يعد أحد يلقي لهما بالًا.

وكان التغير الجوهري الذي لحق بشخصية ميراك بعد حادثة النهر قد جعله أكثر إقناعًا لدوره الجديد، فقد أصبح ميالًا إلىٰ الهدوء، يحب الجميع دون انتظار ما يأخذه في المقابل، ولا يرغب بشيء كرغبته في تقديم المساعدة للآخرين.

في البداية كان الخجل يتملَّك سادر من مواعظ ميراك وترديده لرواية عودته من الموت، ثم سرعان ما رأىٰ أن دعوة ابنه لعنة حلت عليه؛ وذلك عندما أثارت تلك الدعوة فتنة بين القبيلتين اهتزت لها زعامته، ولم يُغَيِّر من نظرته تلك نجاح ميراك في الإصلاح بين القبيلتين.

لكن سادر اكتشف في أوقات تلت، أن من الممكن لدور ابنه الجديد أن يكون مفيدًا للغاية.. بل ومنقذًا أيضًا؛ ذلك أن مشكلة اختلاف نظام الأسرة بين القبيلتين كانت تؤرقه، ويتوجَّس من أن تعصف باتحاد القبيلتين عند أول إثارة لها، وتطيح بالقيادة الموحدة، لكن الأمل بحل تلك المشكلة لَمَعَ لسادر عندما وجد أن المكانة الفريدة التي تبوأها ابنه لدىٰ القبيلتين، قد تُغنيه عن الحاجة إلىٰ عون ماس في اقناع القبيلة الغربية بتغيير نظام الأسرة فيها، حيث يمكن لابنه – ومن مكانته الجديدة – أن يطلب من القبيلة الغربية التغيير المنشود، أو علىٰ الأقل يُمكنه أن يطلب من القبيلتين تقبّل اختلاف نظام الأسرة بينهما، أو كما يسمونه اختلاف حياتهما.

لكن ميراك لم يتمكن من إقناع أبناء القبيلة الغربية بتغيير نظام الأسرة لديهم، ولم يشأ أن يلحّ عليهم في ذلك الشأن، غير أنه تمكن بعدها من جعل أبناء القبيلتين يتقبلون بمحبة ذلك الاختلاف بينهم، وإن لم يَخْلُ الأمر لاحقًا من بعض التعقيدات، فقد راح بعض العشاق من كلتا القبيلتين يتقربون من فتيات القبيلة الأخرى، ولغياب نظام الزواج عند القبيلة الغربية طرأت مشاكل في بعض الحالات، ولكنها ظلت محدودة وفي نطاق ما يمكن حله، وكان الحل في بعض الحالات يتمثل في قبول المُحبين والمُحبات من الغربيين، بالزواج ممن أحبوا من الشرقيين، وهكذا راح نظام الزواج يتسلل إلى القبيلة الغربية بهدوء، ومن دون أن يفرضه عليهم أو يطلب منهم قبوله أحد.

وكان ينعقد في يوم الزواج تجمع احتفالي، يقوم خلاله الزوج بتقديم هدية للزوجة، تكون عادة عقد من أسنان الحيوانات أو الصدف، وأحيانًا تكون تاجًا رباعيًا يصنع من عظام حيوانات تُربط إلى بعضها بأربطة جلدية، ويقدم الزوج بعض الفواكه لمن حضروا، كما يشهد يوم الزواج ترديد الأهازيج والتصفيق من قِبَلِ الحاضرين.

المتسلل

استقرت أوضاع القبيلتين لبضعة أسابيع، وذات ليلة شِبْه مُقمرة، بينما كان سادر يغط في النوم داخل غرفته متوسدًا ذراعه كعادته، وحارسه لدى الباب من الخارج قد غلبه النوم، وحارسه الآخر يتسامر مع حارسا المخزن، إذ اقترب أحدهم من باب الغرفة وهو يَنْقُل خطاه على رؤوس أصابع الأقدام؛ لكي لا تثير خُطاه صوتا، ومَرَّ بجوار الحارس النائم، ووقف بين جداري مدخل الغرفة وكأنه يستجمع جرأته، أو ليتأكد هل هناك مِن مُستيقظٍ بين سكان الغرفة وحرّاسها، ثم أحكم قبضته على هراوته، ودلف إلى الغرفة التي كان ضوء القمر الخافت يتسلل من مدخلها. اقترب الرجل من سادر ووقف عند رأسه، وجال ببصره سريعًا في أنحاء الغرفة، ثم رفع هراوته عاليًا، فانطلقت صرخة من أحد أركان الغرفة: "احترس يا أبي"، فهبّ سادر من نومه، بينما اندفع المتسلل إلى خارج الغرفة وأطلق ساقيه للريح.

التقط الحارس الذي نبّهته صيحة ميراك رمحه، ورأى المتسلل وهو يفر، لكنه كنصف مستيقظ أو كنصف نائم لم يعرف ماذا يجب عليه فعله، وَهَمَّ بدخول الغرفة، فصرخ به سادر: "أدركوا الرجل قبل أن يهرب"، فانطلق الحارس متخبّط الخطى خلف المتسلل، ولحقه ميراك بن سادر، لكنهما لم يدركا الرجل، وعادا أدراجهما خائبين.

توافد عدد من رجال القبيلتين مستفسرين عن سبب الجلبة، فأخبرهم سادر بما جرى، وأنه لولا صرخة ميراك المحذِّرة من ركن الغرفة لبلغ منه المتسلل، الذي يبدو أنه لم ير ميراك، أو ظن أنه كان نائمًا. وتوافد المزيد من رجال القبيلتين، وراحوا بدورهم يسألون ويتلقون الأجوبة، ثم وسط لغط الحاضرين قال سادر: "لنذهب جميعنا للبحث عن ذلك الخبيث.. لقد فرَّ باتجاه التلال".

فتدخل كادوس البارع في التعرف على آثار الأقدام واقتفائها قائلًا: "هذه ليست فكرة جيدة أيها القائد؛ لأن آثار الأقدام ستختلط بأثر الرجل، ولن أستطيع حين أذهب لاقتفاء الأثر في الصباح أن أميز أيها أثره، وإذا كان لا بد من البحث الآن، فليذهب رجل واحد فقط".

قال ماس حكيم القبيلة الغربية: "سأحاول أنا أن أجده".

قال سادر: "الرأي ما قاله كادوس، لا نريد أن تختلط آثار الأقدام، فاذهب لوحدك يا ماس، ولا تبتعد كثيرًا، فأنا أخشى أن يغدرك ذلك الوغد، وإن شئت الحق، يجب أن يقوم أحد الشباب بهذا الواجب بدلًا عنك"، فاعترض ماس بصوت قوي قائلًا: "لستُ ضعيفًا ولا جبانًا يا سادر".

-"ما ضعَّفتُك ولا جبَّنتُك، وليس عيبًا أن يكون الشباب أقدر على العمل".

-"أقسم بالشمس العالية أن أذهب بنفسي خلف ذلك الرجل، وأن أقتله إن وجدته، وسيرى الشباب صُنعي".

انطلق ماس بحماسة بادية وهو يحمل هراوته في يمناه، والحاضرون ينظرون إليه وهو يبتعد غاطسًا في الظلام.

وبينما كانوا ينتظرون عودة ماس، قال ميراك لوالده: "وما عسى أن يفعل ماس؟ لقد كبرت سِنُّه ولن يقدر على مطاردة رجل قوي ولا على مصارعته"، فعلق سادر: "ولهذا كنت أريد أحدكم أن يذهب بدلًا عنه، مع أنه لا يزال يحتفظ بشيء من القوة وإن تقدم به العمر. ثم لا تنسَ أنه ذكي، والذكاء يعوض نقص القوة، فبالعقل لا بالقوة تعرف متى يكون إقدامك ومتى يكون إحجامك".

قطع حديث القوم ظهور هيئة إنسان تتجه نحوهم، وإذا به ماس يقترب ويقول بتحفز: "لم أجد أحدًا يا زعيم، وأظن أنه نزل من التلال واتجه صوب

النهر ليعبره إلى الضفة الأخرى.. لكن من تظنون عساه يكون ذلك المتسلل؟ لا أظن أن يأتي أحد من أصحاب الأطواف من وراء البحر إلى هنا منفردًا، وحتى لو جاء أحد أصحاب الأطواف لوحده، فكيف عرف أن سادر قائدنا ليقصد قتله دون غيره؟! ثم كيف عرف مكان الكوخ؟ وكيف عرف أن سادر داخله؟"

فهمهم القوم بالموافقة على ما سمعوه.

فأضاف ماس: "ولا يُعقل أن يقوم أحدنا بالتسلل إلى كوخ سادر محاولًا قتله.. وأحسبني أعرف من الفاعل".

سأل سادر: "من هو؟"

فأجاب ماس وهو يضغط أسنانه على بعضها: "رابون".

فعلق سادر: "صَدَقْت.. رابون ولا سواه".

فتعالت أصوات القوم وتداخلت منددة بفعلة رابون.

في حقيقة الأمر كان ماس نفسه هو الفاعل، فقد كانت لديه طموحات قديمة بأن يجمع لنفسه مَنْصِبَي حكيم القبيلة وقائدها، ولم يجد في زمن قيادة رابون فرصة مواتية للوثوب على مكان القيادة، فلمّا ارتأى رجال قبيلته اختيار سادر قائدًا، وافق ذلك الاختيار هواه - وإن كان يحسد سادر - لأنه وجد في ذلك فرصة طال انتظارها لإزاحة رابون من طريقه، وكان ظنه أن إبعاد سادر بعدها سيكون في كل الأحوال أسهل عليه من إبعاد رابون، مُستغلًا إقامة سادر غربي النهر على أرض قبيلته هو، لكن ماس بعد ذلك كان يُفضل إرجاء إبعاد سادر، لأنه فكر بأن رابون قد يعود إذا ما غاب سادر لأي سبب، ولذلك كانت خطته النهائية تقضي بأن يغتال سادر، ومن ثم يلصق التهمة برابون، فيتخلص من كليهما بضربة واحدة.

وشجعه على الإقدام على خطته تلك، العداء الطبيعي بين رابون وسادر، الأمر الذي يُسهل دفع الناس إلى التصديق بأن الفاعل هو رابون، أما الآن وقد فشل في اغتيال سادر، فلم يعد أمامه سوى التحريض على قتل رابون، ليس ليتخلص من رابون فقط، وإنما لكي يتوقف البحث عن المتسلل أيضًا، ذلك المتسلل الذي لم يكن سواه.

وهكذا صدق القوم أن رابون هو الرجل المتسلل، وطلب سادر خمسة من الحراس وأمرهم بالانطلاق عند الفجر للبحث عن رابون على طول شط النهر وصولًا إلى الشلال؛ لظنه أن رابون لن يبتعد كثيرًا عن النهر، ولم يخطر لسادر بأن هناك أحداثًا جسامًا على وشك أن تدهمهم.

مع آخر أنفاس تلك الليلة وصل المئات من أصحاب الأطواف على ظهور أطوافهم، ونزلوا على الأرض الواقعة شرقي النهر، حيث كانت تقيم قبيلة سادر قبل أن تنتقل إلى الغرب. وبدا أن أصحاب الأطواف سبق لهم استطلاع المكان، فقد اختاروا الوصول إلى النهر من الجانب الشرقي الخالي من السكان، ربما ليصلوا إلى النهر بهدوء حتى يحكمون قبضتهم على الأرض هناك، فإذا هاجمهم بعد ذاك رجال القبيلتان، يكون من السهل عليهم القيام بدور المدافع هذه المرة، والتصدي لسادر وشعبه الموحد الجديد.

وكان من المفارقات أن أول من عرف بوصول أصحاب الأطواف هما المفارقان لقبيلتهما، قائد القبيلة الغربية السابق رابون، وصديقه دار، لأنهما كانا يتخفيان على الجانب الشرقي من النهر في أطراف الغابة، وبعد أن تأكد لهما مقدم أصحاب الأطواف عند شروق الشمس، سُرَّ رابون كثيرًا لِمَقْدَمِهِم، نكاية بسادر والقبيلتين.

وقد كان رابون ودار في الفترة الماضية يرزحان تحت ضغط بالغ من الإحساس بالوحدة والتشرد، وكان كل منهما في قرارة نفسه يريد إنهاء هذه التجربة القاسية. ومع أن ظروفهما النفسية كانت متشابهة، إلا أن كل منهما كان له رأي مختلف بشأن ما يجب فعله بعد وصول أصحاب الأطواف، فقد كان رابون يرىٰ أن عداءهما للقبيلتين يقرِّبهما من أصحاب الأطواف، ولذلك كان رأيه أن يتوجها إلىٰ أصحاب الأطواف ويعرضا عليهم تقديم العون والمساعدة. أما دار فكان رأيه في المقابل كما عبر عنه، أن مساندة أصحاب الأطواف تُعد تصرفًا خسيسًا، حتىٰ وإن أساءت لهما قبيلتهما في ما مضىٰ، وأن من الواجب عليهما الوقوف إلىٰ جانب القبيلتين في المواجهة المرتقبة، وأن الذهاب إلىٰ أصحاب الأطواف لتقديم العون لهم، فوق كونه ضِعة وخِسة، يُعد كذلك مغامرة خطرة، لأنهم غرباء لا يؤمن جانبهم. وكان رد رابون علىٰ رؤية دار، أن سادر وقبيلته أيضًا جاؤوا غرباء، ومع ذلك كان التفاهم والاتفاق معهم سهلًا، فلماذا لا يتم التفاهم مع الغرباء الجدد أصحاب الأطواف؟ وأن الخِسَّة الحقَّة هي خيانته وتنصيب سادر قائدًا مكانه.

احتدم الجدال بين الرجلين، واتهم رابون دار بأنه يواري جُبْنَه وراء دعاوىٰ الوفاء والشهامة، وأنه يبحث عن حجج يتذرع بها للعودة إلىٰ القبيلتين بعد أن رَوَّعَتْهُ الحياة بعيدًا عن الناس، وعجز عن الاستمرار فيها، فرد دار علىٰ رابون بغضب، ونعته باللؤم وانعدام الأخلاق.

وأسفرت المشاحنة والخُلْف بين الرفيقين إلىٰ افتراقهما عند طرف الغابة، وتوجّه رابون نحو أصحاب الأطواف، بينما تراجع دار داخل الغابة، عاقدًا العزم علىٰ العودة إلىٰ القبيلتين، وسَرَّته كثيرًا فكرة العودة إلىٰ القبيلتين بعد أن أوحشه البعد عن الناس، وأضناه الشعور بالعزلة، فكان قدوم أصحاب

الأطواف بالنسبة له فرصة لإنهاء منابذته لأبناء القبيلتين، والعودة إليهم متسترًا بحجة الوقوف إلى جانبهم في وقت الشدة، نخوةً وشهامةً وسُمُو خُلق، لكنه رأى أن يتلبَّث قليلًا في الغابة، ليعطي القبيلتين الوقت الكافي لإدراك وجود أصحاب الأطواف، ثم يتوجه عندئذ إليهم، ليكون لمقدمه قبول وترحيب.

تقدّم رابون نحو أدنى أصحاب الأطواف منه مكانًا، وما أن وقعت عيونهم عليه حتى تحفزوا لمهاجمته، فبادر مبتسمًا بمد ذراعيه إلى الأمام وكفّاه مبسوطتان، يريهم خلوهما من السلاح، وأن مَقْدَمَه ليس لقتال، ثم اقترب منهم وأخذ يتكلم عارضًا عليهم مساعدته ضد القبيلتين، فلم يفهموا كلمة واحدة مما قال؛ لاختلاف لغتهم عن لغته، فاقتادوه إلى قائدهم، وهو ذات الرجل الرهيب الذي كان يقود أصحاب الأطواف في المواجهة السابقة التي أصابه خلالها ميراك، ووقف رابون أمام القائد وقد ملك الرُعب عليه حِسَّه؛ وذلك لإدراكه بأن عجزه عن إخبار أصحاب الأطواف أنه صديقهم أو متعاون معهم، قد يعني نهايته على يد هذا القائد ورفاقه، وأحس بندم غائر على تسرّعه في الذهاب إلى أصحاب الأطواف، وأعاد الكلام عن استعداده للمساعدة أمام قائد أصحاب الأطواف بصوت يخنقه الرعب، فأخذ القائد يُلقي عليه أسئلة وسط ذهول أصحاب الأطواف من تبادل قائدهم الحديث مع زائرهم بكلام لا يفقهون منه شيئًا، أما رابون فقد شعر بارتياح نسبي لإمكانية التواصل مع القائد، وحين سأله القائد عن دوافعه لمساعدتهم، أجاب بأنه كان قائد قبيلته، وأن القبيلة أزاحته مؤخرًا واختارت لها رجلًا طارئًا ليقودها، وأنه يرغب لذلك بالانتقام منهم جميعًا، واستفسر القائد منه عن معنى كلمة قبيلة، فأخبره رابون بمعناها، وعلى الرغم من أن قائد أصحاب الأطواف لم يَبْدُ عليه الاقتناع بكلام رابون عن

دوافعه لمساعدتهم، إلا أن حاجته لمن يدله على مكامن ضعف عدوه جعلته يرحب برابون.. ولكن على حذر.

وكان رابون أسعد الناس حين قَبِلَه قائد أصحاب الأطواف كمتعاون معهم.

أما على الجانب الغربي من النهر، فلم يمر الكثير من الوقت ذلك الصباح حتى جاء هميان يحمل إلى سادر نبأ تواجد أصحاب الأطواف على الجانب الشرقي، وأن رابون شُوهد بينهم، فطلب سادر منه ومن المتواجدين من الحراس إبلاغ رجال القبيلتين بالنبأ، وإبلاغهم كذلك أن سادر يطلب منهم سرعة القدوم إليه استعدادًا لمواجهة أصحاب الأطواف.

وكان كادوس مقتفي الآثار قد بدأ عمله منذ بزوغ شمس ذلك اليوم، ووجد أن آثار أقدام المتسلل الذي حاول اغتيال سادر ليست مما يعرفه من آثار، ولمّا كان يعرف آثار أقدام أبناء القبيلة الشرقية فردًا فردًا، عرف أن الرجل المتسلل إذا كان من القبيلتين فهو قطعًا من القبيلة الغربية، ولهذا راح ينظر في آثار أقدام كل من يمر به منهم، ويتفحص كل أثر يراه على الأرض.

في الأثناء كان رجال القبيلتين يتوافدون إلى حيث كان ينتظرهم سادر خارج مسكنه بقلق وغضب، وبينما الرجال يتقاطرون على المكان قال الحكيم ماس لسادر: "سأذهب إلى حافة الشط عَلِّي أظفر برؤية رابون على الضفة الأخرى، فأناديه لنعرف منه إمكانية التوصل إلى حلٍ مع أصحاب الأطواف"، وافقه سادر مع انقطاع رجائه من جدوى المحاولة؛ ليقينه أن قرار أصحاب الأطواف لا يمكن أن يكون في يد رابون، وأن رابون بعد خلعه من القيادة لو كان له أدنى تأثير على أصحاب الأطواف، فسيستغله لتوجيههم ضده وضد القبيلتين.

دنا ماس من الشط، ووجد هناك عدد من رجال القبيلتين يمدون أبصارهم نحو الضفة الأخرى لرؤية ما يجري هناك، وكان كادوس وسطهم يتفحص

الآثار، دون أن يشغله ما يدور عن مواصلة عمله، لكنه لم يظفر هناك بأثر قدم يطابق أثر المتسلل، وحين وصل ماس التفت إليه كادوس، ثم حوَّل نظره إلى الأرض صوب آثار أقدامه بتلقائية كما يفعل مع الجميع، مع أن شكوكه لم تَحُم حول ماس، وذُهل كادوس من تطابق آثار أقدام ماس مع آثار أقدام المتسلل، ونزل على ركبتيه يتفحص الأثر عن قرب ليتثبَّت، فلما رآه ماس يتفحص آثار أقدامه تيقن من انكشاف أمره، وحار ماذا يصنع.

انطلق كادوس يعدو لإبلاغ سادر بما اكتشف، وماس يرقبه دون أن يداخله شك في وِجْهَتِه، مُدركًا أن ما هي إلا هنيهة قبل أن يطلب الجميع رأسه لمحاولته قتل زعيمهم، فأخذ يهرش رأسه بعنف وهو يفكر مسابقًا الزمن.. ثم قفز في النهر.

كان سادر يجلس خارج مسكنه، ومعه العشرة أهل المشورة، وعدد من المقربين منه، بينما جمع غفير من رجال القبيلتين يقفون من حولهم، وأقبل نحوهم كادوس وأنفاسه تطارد بعضها، وراح يشق الصفوف حتى وصل إلى سادر، وقال له على الفور: "لقد عرفت من المتسلل يا سادر، رأيت آثار أقدامه الآن، فإذا هي ذات آثار أقدام المتسلل"، فسأله سادر: "ومن هو؟"

-"ماس"

-"ماس!! هل أنت متأكد؟"

-"نعم متأكد، وهو الآن عند الشط، وقد رآني أتفحص آثار أقدامه فبدا عليه الجزع".

-"يا للخبيث، لقد أصر البارحة على الذهاب لمطاردة المتسلل، لنظن حين نجد آثار أقدامه في الصباح بأنها آثاره وهو يطارد المتسلل، بينما هو نفسه

المتسلل.. لطالما كان لدي إحساس بأن ذلك الوغد لا يكن لي الود، ولكن لم أتخيل أن يبلغ به الحقد حد الإقدام على محاولة قتلي".

ثم وقف سادر ورفع صوته بنبرة غاضبة مخاطبًا حشد رجال القبيلتين قائلًا: "أيها الرجال، لقد تأكد كادوس من أن ماس هو من تسلل إلى كوخي البارحة يريد قتلي، وهو الآن عند الشط، وأريد منكم أربعة يذهبون مع بومبا إلى هناك، ليأتوني بذلك الخبيث إلى هنا."

تطوع كثيرون لمرافقة بومبا، فاختار سادر منهم أربعة فقط، وانطلق الخمسة كالنمور نحو الشط، بينما سادر وكل الحشد من رجال القبيلتين ينظرون إليهم، وراح سادر يضغط أسنانه على بعضها بغيظ حتى سُمع صريرها، وسُمِعَ وهو يقول لنفسه بصوت مكتوم: "سترى يا ماس الغدار.. سترى".

وصل بومبا ورفاقه إلى الشط فلم يجدوا ماس، وقبل أن يسألوا الواقفين هناك عنه، بادر هؤلاء بإخبارهم والذهول لا يزال يتملكهم أن ماس عبر النهر إلى الضفة الأخرى، وأنه أصبح الآن عند أصحاب الأطواف.

وكان ماس حين انكشف أمره، ورأى كادوس يُسرع لإبلاغ سادر بأنه المتسلل، قد فكر في اللجوء إلى قائده السابق رابون وأصدقائه الجدد على الضفة الأخرى، وهي فكرة جَفَل منها أولًا، إلا أنه مال إليها أخيرًا ليتجنب الوقوع في يد سادر، فقفز في النهر وبدأ بالسباحة نحو الضفة الأخرى، وسط دهشة الواقفين على الضفتين.

عاد بومبا ومرافقوه الأربعة إلى سادر وحشد رجال القبيلتين، وتقدم بومبا نحو سادر ووقف أمامه منكس الرأس وقال: "لقد فر ماس إلى الضفة الأخرى"، فنهره سادر بقوة وقال: "فرَّ لأنكم تأخرتم"، والتفت نحو كادوس

بغضب وقال: "وأنت أيها الأبله، ما كان عليك أنت تفارقه حين رأيت آثار أقدامه عند الشط وعرفت أنه المتسلل، كان يجب أن تطبق على عنقه بيديك".

قال كادوس محاولًا الدفاع عن نفسه: "كنتُ يا زعيم.." فقاطعه سادر: "لا تبرر خطأك".

وتدخل ميراك قائلًا: "يا أبتي أرجوك.." فقاطعه سادر أيضًا بقوله: "وأنت تماثله بلاهة، لقد اعتمدت عليكما معًا.. كيف تفوتكما معرفة أثر ماس وهو بجواري طوال الوقت".

قال ميراك: "أرجوك يا أبي أن تهدأ، وجود ماس بجوارك طوال الوقت هو ما جعلنا نبعد الشك عنه، ثم أننا الآن في مأزق أكبر وأخطر من مطاردة ماس، أعني وجود أصحاب الأطواف على أرضنا، وقد دعوتَ رجال القبيلتين للقدوم إليك للمشاورة بهذا الشأن، فأرجوك يا أبي أن تهدأ، وأن لا تدع فرار ماس يشغلك عن ما هو أهم، فالجميع في شُغل بما دهمهم هذا الصباح، وينتظرون منك ما يفرج كربهم".

كان لكلمات ميراك فِعْلُ السحر على والده، فسكن، وجاءت الأصوات من بعض الحاضرين تؤيد ميراك: "إنه محق يا زعيم، لقد صدق ميراك يا زعيم".

أخذ سادر نفسًا عميقًا وبدأ بالحديث عن وصول أصحاب الأطواف، وكأن شيئًا من أمر ماس لم يكن.

أما ماس، فعندما وصل إلى الضفة الشرقية وجد نفسه وجهًا لوجه مع رابون وعدد من أصحاب الأطواف، فبادر بالقول مستبقًا أي تصرف منهم: "لقد جئت لمناصرتكم"، فتقدم رابون نحوه دون أن ينطق بكلمة، وبدا أن رابون يريد أن يعرف من ماس سبب زيارته المُجَازِفَة، وتَحَلَّق جمعٌ متحفز من أصحاب الأطواف حول الرجلين كالسوار، فحاول رابون – مع إدراكه بأنهم لا يفقهون

كلامه - أن يطلب منهم التريث حتى يتبين لهم سبب قدوم ماس، وفجأة هدأت همهمات الرجال الذين كانوا يطوقون رابون وماس، ولم يكن هدوءهم استجابة لطلب رابون، بل بسبب مَقْدَم قائدهم المهيب، وانفرجت له حلقتهم كالسوار الكسير، مُفسحين له ممرًا إلى داخل الحلقة.

تزايدت أمارات الفزع على وجه ماس حين وقع بصره على قائد أصحاب الأطواف، وسأله القائد على الفور: "ما الذي جاء بك يا هذا؟" فأشار ماس نحو الضفة الأخرى وقال بصوت راجف: " أنا على خلاف معهم... وجئت لنصرتكم".

-"ومن تكون أيها الحقير لنكون بحاجة نصرتك؟"

ارتعد ماس وأُرتِجَ عليه فلم يحر جوابًا، فباغته قائد أصحاب الأطواف بالسؤال: "كيف نُصدِّق أنك على خلاف معهم، وأنك لم تأت بغية كشف أحوالنا؟" فامتقع وجه ماس وارتبك فوق ما كان، وأراد أن يجيب فتعثرت كلماته ببعضها، وانهارت العبارات فوق لسانه الذي لطالما تفاصح بالمواعظ، ثم نظر كالمستغيث إلى قائده السابق رابون.. كانت كلمة واحدة من رابون مُشَكِّكة في مصداقية ماس كفيلة بأن تجعل قائد أصحاب الأطواف يهشم رأسه، حتى وإن كان لا يثق في رابون، ولوهلة كان رابون على وشك أن يفعلها، انتقامًا من ماس لمشاركته في الإطاحة به من قيادة قبيلته، لكنه عاد وآثر ألا يقضي على ماس، ربما مدفوعًا بالإحساس الطويل بالوحدة، والشعور بالاغتراب وسط أصحاب الأطواف، فقال للقائد: "لقد صَدَقَك القول أيها القائد، إنه على خلاف معهم".

فرد عليه القائد الرهيب بغضب: "لم نُصَدِّق بعدُ أنك أنت على خلاف معهم، كي تشهد لغيرك بالصدق وكأنك قد صرت منّا!" ثم راح يقلب ناظريه

المخيفين بين رابون وماس، فروَّعتهما نظراته، وبدت لهما اللحظات التي صمت خلالها أثقل من الصخور العظام، حتى سمعوه يقول: "سأكشف حقيقتكما قريبًا، والويل لكما إن كنتما تكذبان"، فقال رابون بتذلل: "سترى إخلاصنا لك أيها القائد"، لم يعلّق القائد الرهيب على مقالة رابون، وانصرف نحو صخرة عند طرف الشط، ليراقب من على ظهرها كامل المشهد، فتنفس ماس ورابون الصعداء بعدما كان الخوف يأخذ بخناقهما، ثم مشيا سويًا نحو طرف الغابة يتحدثان.

نار البحر

على الضفة الأخرى كان سادر وابنه ميراك عند الشط يستطلعان قوة أصحاب الأطواف، ثم فجأة قال ميراك: "انظر يا أبي، انظر إلى ذلك الرجل الواقف على الصخرة، إنه قائدهم المُخيف الذي أصبتُه بالهراوة أثناء قتالنا معهم في المرة السابقة"، ألقى سادر النظر على الرجل عظيم البنية ولم يصدق ما رأت عيناه، فأعاد النظر مع وَضْع كفه اليمنى مقلوبة أمام جبهته لتصد أشعة الشمس، فيظفر برؤية أوضح، وتأكّد لديه أن الرجل الواقف على الصخرة هو شادر الرهيب، وعرف أن كلام أصحابه عن توحُّش قائد أصحاب الأطواف لم يكن مبالغة طالما وهو شادر المُرعب. في ذات الوقت كان شادر من فوق الصخرة يمعن النظر في سادر، فقد كان لا يستبعد لقاء سادر في هذه الأرض بعد رؤيته لميراك في المواجهة السابقة، وملاحظته شَبَه الفتى الكبير بسادر، ولذلك كان توقُّعه أن سادر والد الفتى، وأنه قد يلاقيه في هذ المكان، والآن ها هو ذا يرى سادر أمامه، لكنه مع ذلك لم يكن على يقين تام بشأن هوية سادر؛ ولولا شبه ميراك بسادر في سابق أيامه، لما خطر له أن يجد سادر في هذه الأرض، حتى لو صادفه وعاينه.

وتبادل القائدان النظرات عبر النهر واقفان بلا حراك لأكثر من دقيقة، حتى تدخل ميراك بسؤاله والده: "ما بك يا أبي؟" فرد سادر بعفوية مصطنعة: "لا شيء، لنحاول تقدير عددهم ثم نعود ونستعد للقتال".

كان مرد تكتم سادر على هوية قائد أصحاب الأطواف، يعود إلى عدم رغبته في أن يقدم لقومه قائد أعدائهم في قصةٍ أشبه بالأساطير، وغير مفهومة حتى له، كما أنه لا يريد أن يوهن عزائم رجاله بالحديث عن قسوة شادر وقوته، وهناك سبب شخصي لدى سادر يضاف إلى الأسباب السابقة لتحفظه بشأن هوية قائد

أصحاب الأطواف، وهو أن زوجته ناشا كان لديها بغض دفين لشادر، لكونه قاتل والديها، على الرغم من اعتقادهم الراسخ بموته، ولذا لم يشأ سادر أن ينكأ الجراح القديمة لزوجته.

على الضفة الشرقية بقرب الغابة كان رابون يعاتب ماس على خلعهم إياه من قيادة القبيلة، وحين فرغ قال له ماس: "أرجوك يا رابون أن تغفر لي، لقد غرَّنا وأعمى أبصارنا ذلك المحتال الأفَّاك سادر"، فقال رابون متعجبًا: "الآن يا ماس تطلب غفراني، وتدَّعي الندم! وما يجديني ندمك وقد صرتُ هائمًا على وجهي أعوي مع الذئاب؟ وها أنت ذا تلقى ذات المصير".

قال ماس: "إذن ليكن في ما جرى لي عزاء لك، ولننس ما مضى يا زعيم.. ثم ألا يكفي تكفيرًا لزلتي أنني حاولت قتل سادر؟ ولقد كدت أن أقتله لولا أن تنبه ابنه اللعين ميراك في اللحظة الحاسمة وحذَّره، وبعد ذلك عندما علمت أنك هنا عزمتُ على القدوم إليك، لطلب الصفح منك، وتقديم العهد بالولاء والطاعة لك".

قال رابون: "يا ليتك قتلته وخلصتنا منه، إذن لجنبتنا عناء ما نحن فيه، وكَفَّرت عن ذنوبك كافة".

-"لم ينقذه مني إلا الحظ".

-"لكنه سيحتاج إلى أكثر من الحظ لينجو من أصحاب الأطواف، ولقد وعدني قائدهم بأن يجعلني قائد القبيلتين بعد تغلبه".

فتساءل ماس: "وماذا يريد منك لقاء ذلك؟"

-"وعدتُه أن أساعده قدر طاقتي ضد القبيلتين، معتمدًا على معرفتي بمكامن ضعفهم، ومعرفتي بهذه الأرض، ولكن إذا تعاونت معي فلن نكون في حاجة إلى هؤلاء الغرباء".

-"كيف؟"

-"إذا ساعدتني في دعوة رجال قبيلتنا إلى الخروج عن طاعة سادر، فسيستجيب لك بعضهم، أعلم أن قلة فقط سيستجيبون لك؛ خاصة بعد محاولتك قتل سادر، لكن إذا اجتمع لنا حتى عشرون رجلًا، ورآهم البقية يجتمعون وأنا وأنت بينهم، فسيلتحق بنا كثيرون، وعندئذ ستعود قبيلتنا بأكملها إلى رشدها، وقبيلتنا أكثر عددًا وأشد بأسًا من قبيلة سادر، وسيسهل علينا عند ذاك القضاء على سادر المحتال وقبيلته".

قال ماس: "فكرة ذكية، ولكن يجب أن تُرَوِّي فيها أكثر، أنت رجل شجاع يا رابون، ولكنك تتعجل الأمور"، ثم تلفت ماس حوله واستأنف حديثه بصوت أكثر انخفاضًا: "قلتَ لي أن هؤلاء الغرباء وعدوا بجعلك قائدًا للقبيلتين، ولكنني أظن أنهم إذا غلبوا القبيلتين، فسيكون أول ما يقومون به هو الفَتْك بك.. أعني بِنا، لأنهم سيرون حينذاك أنهم لم يعودوا في حاجتنا. هل تصدق أن بقاء سادر قويًا هو الشيء الوحيد الذي يحمينا الآن من هؤلاء الغرباء؟!"

قال رابون بصوت خافت: "يبدو أنك محق في هذا أيضًا يا ماس، إذا تغلبوا على القبيلتين ستنقضي حاجتهم إلينا"، صمت رابون لبرهة متفكرًا ثم أضاف وصوته تُقَطِّعَه عبرة البكاء: "ولكن ما عساي أفعل وقد نبذتني قبيلتي، ولم يبق في الوسع شيء، ولم أجد أمامي إلا مسايرة هؤلاء الغرباء.. لكن بوجودك إلى جانبي قد نتمكن من استعادة أرضنا وقبيلتنا، حتى بدون مساندة الغرباء".

قال ماس بهدوء: "أخشى أن ما تفكر فيه قد انقضى أوانه، فالمواجهة بين الغرباء والقبيلتين باتت وشيكة، ثم كيف أدعو رجال قبيلتنا لعصيان سادر، وأنا لو وضعت قدمي هناك على الضفة الأخرى، لتخطفوني ومزقوني هُم قبل رجال القبيلة الشرقية؛ بسبب محاولتي قتل سادر؟ لقد أصبح جُل قبيلتنا أو

كلُّهم يحبونه يا رابون، حتى أنهم لم يعودوا ينظرون إليَّ كحكيم القبيلة، ويتوجهون إلى اللعين ميراك ويطلبون بركاته.. لقد أحكم سادر الخبيث قبضته على القبيلتين، ولن تصدق إذا قلت لك أن القلة الذين تغيرت قلوبهم عليه ليسوا من قبيلتنا، بل من قبيلته هو، ولكنهم حفنة من الرجال لا يملكون أن يصنعوا شيئًا"، ثم تنهد ماس بعمق وقال: "لم آت إلى هنا إلا وقد حِرت فيم أفعل، وها نحن يا زعيم بين طرفين أيهما تغلَّب كنا فريسته".

-"تعني حتى إذا انتصر سادر والقبيلتان سنكون فريستهم؟"

-"إذا انتصر سادر فسينتقم مني لمحاولتي قتله، وسينتقم منك لوقوفك مع أصحاب الأطواف".

-"هذا يعني أننا منذ الآن، ودون انتظار معرفة أي الطرفين كان المتغلب، قد أصبحنا أمواتًا".

-" لا يا رابون، لا يزال أمامنا خيار الفرار، ولكن.."

فقال رابون مقاطعًا بضيق: "أقسم بالشمس العالية أن لا أفر، وأن لا أهيم على وجهي مرة أخرى كالحيوانات مهما حدث".

ربَّت ماس على كتف رابون وقال: "لندع الحديث عن الفرار، فهو آخر ما يمكن أن نلجأ إليه، ونحن بعدُ لا نزال نملك وسيلة أخرى للنجاة، فأنْصِت إليَّ وافهمني جيدًا، لأننا إذا أنجزنا ما سأقوله الآن، فستنخلص مما وقعنا فيه." ثم أضاف بنبرة عميقة مع المحافظة على خفض صوته: "يجب أن يتم اتفاق بين الطرفين، أعني بين أصحاب الأطواف والقبيلتين".

-"ماذا تعني؟"

- "أعني اتفاقًا على تقاسم الأرض، كما تقاسمنا الأرض من قبل مع سادر وقبيلته.. هل نسيت؟"

-"وكيف يمكن أن أنسى؟ لم يوصلنا إلى ما وصلنا إليه إلا ذلك الاتفاق، وكان يجب أن أعرف منذ تلك اللحظة التي أرغمتموني فيها على ذلك الاتفاق، أني لم أعد الزعيم".

قال ماس وهو يحدق في عيني قائد قبيلته السابق: "دعنا الآن من هذا يا رابون. أنا أعلم أن هؤلاء الغرباء كالوحوش الضواري، ويصعب الاتفاق معهم على شيء، لكن يجب أن تبذل وسعك لإقناعهم أن الاتفاق في صالحهم. قل لقائدهم الكريه بأن القبيلتين قوية، وأنهما تلتفان حول قائد قوي، وأن أرض الجانب الشرقي من النهر حيث هم الآن، يكفيهم خيرها ويزيد، وهذا صحيح. وإذا أبدوا تشككهم في وفاء سادر بعهده، أكِّد لهم بأنه رجل يحترم كلمته.. يجب أن تثني عندهم على سادر وصِدِّقِهِ واحترامه لوعوده".

قال رابون بحدة: "أُثني على سادر؟!! عليه وعليك اللعنة".

قال ماس: "لم يعد هناك متسع لمثل هذا الكلام، إذا لم تنجح في إقناعهم بالاتفاق فهو الهلاك المحتوم، أو الفرار حتى الممات، أما إذا تم هذا الاتفاق، فلربما عدنا إلى قبيلتنا، لأن سادر لن يجرؤ حينها على التعرض لنا وقد صرنا نُعَد مع أصحاب الأطواف؛ ليتجنب إغضابهم، وليحفظ الاتفاق".

قال رابون متسائلًا: "حسنًا، إذا تمكنتُ من إقناع قائد أصحاب الأطواف باتفاق لتقاسم الأرض، فكيف سنجعل سادر والقبيلتين يقبلون بذلك الاتفاق؟"

فرد ماس بثقة: "سيكون إقناعهم أسهل بكثير من إقناع هؤلاء. هيا يا رابون، يجب أن تبدأ من اللحظة بالحديث مع قائد أصحاب الأطواف، واستخدم مجيئي لمساعدتك في إقناعه، أعني قل له بأنني جئتك بأنباء جديدة عن قوة واستعدادات القبيلتين. تحرك الآن يا زعيم ولا تضيع الوقت".

وبدا رابون كمن تذكَّر شيئًا، وقال: "سأفعل، ولكني نسيتُ إخبارك أن هناك مجموعة أخرىٰ من أصحاب الأطواف قادمة لتلتحق بقائدهم ومن معه هنا".

-"وكيف عرفت؟"

-"عرفت ذلك من قائدهم في غضون حديث بيننا عن مواضع ضعف القبيلتين، وقال بأنه يتوقع وصول تلك المجموعة في أية لحظة، وأنه لن يبدأ القتال قبل وصولها، ولقد شعرت أثناء حديثه معي بأنه تعمَّد تَأَخُّر وصول تلك المجموعة، لكني لا أفهم لماذا يُأخر بعض رجاله عَامِدًا وهو في حاجتهم للقتال معه!"

-"ربما أراد من الوصول المُنفصل لتلك المجموعة أن يبعث الحماسة في قلوب رجاله حين يرون أعدادًا من رفاقهم تتوافد للالتحاق بهم وإسنادهم في القتال المرتقب".

-"أحسنت يا ماس، هو ذاك بلا ريب.. أين غاب عني ذكاؤك هذا يا ماس حين كنا في قبيلتنا؟"

-"لا تَعُد للملام وإلا عُدت له، ولن يكون لهذا نهاية. ثم إن ذكائي الآن إلىٰ جانبك، وإذا نجونا من هذا الشرك الذي وقعنا فيه، فأقسم يا رابون أن أُرِيَك من إخلاصي ومساندتي ما يرضيك ويَسُر نفسك".

علىٰ الضفة الغربية كان سادر ومعه حشد كبير من رجال القبيلتين قد غادروا سهل الأكواخ، ووصلوا إلىٰ قرب الشط، وكان الحشد يحيط بسادر من كل صوب وهو في مركزه، ووقف سادر علىٰ حجرٍ ليشرف علىٰ الجَمْع الكبير، ثم قال بصوت مرتفع: "أيها الرجال، إن هؤلاء الغرباء لم يأتوا إلا لغرض واحد، وهو إفناؤكم والاستيلاء علىٰ أرضكم، وهناك خونة منا زينوا لهم ذلك ومالؤوهم عليه، وربما بلغكم أن من كان زعيم القبيلة الغربية يقف مع الغرباء

الآن، وقد يكون هو من جاء بهم، ثم التحق به الخائن الآخر ماس، ولقد عرفتُ اليوم أن ماس هو من حاول قتلي ليلة البارحة، ولا يداخلني الآن شك أن ذلك كان من تدبيرهم معًا، هو وأصحاب الأطواف ورابون، يرومون بذلك أخذكم وأنتم في غمرة مقتل قائدكم، ولكن خاب مسعاهم. أيها الرجال الشجعان، أنتم اليوم تدافعون عن أرضكم وأنفسكم وأُسَرِكُم، وأنا أثق في قوتكم وبسالتكم، ومتيقن من أنكم ستجرِّعون المعتدين الندم، وحتمًا ستكونون الغالبين"، ثم هتف سادر بقوة: " الموت للغرباء، الموت للغرباء".

وراح حشد رجال القبيلتين يردد بحماسة وبأصوات تكاد تهز الأرض: "الموت للغرباء، الموت للغرباء"، ووصل الهتاف إلى مسامع أصحاب الأطواف الذين أخذوا يتجمعون على الضفة الأخرى، وعلى الرغم من أنهم لم يفقهوا لكلمات الهتاف معنى، إلا أن أصداءه كادت أن تنال من عزيمتهم، لولا ظهور أطواف رفاقهم القادمين لنصرتهم، فتعالت أصواتهم ترحيبًا برفاقهم، واشتد عزمهم كما كان من قبل وأشد.

كان أصحاب الأطواف يمدون أبصارهم جَذلى نحو أطواف رفاقهم، أما سادر ورفاقه فكانوا ينظرون إلى الأطواف القادمة بمشاعر مختلفة، فقد أقلقهم وفود أطواف جديدة محملة بالمزيد من أعدائهم، تستقبلهم الهتافات المدوية، وأدرك سادر عندها أن حماسة رجاله أخذت تَفتُر، وأن عليه تدارك الأمر بسرعة، فقال بصوت مَلَأَهُ بالقوة: "لقد ساق هؤلاء القادمون الجُدد عثار حظهم إلى هنا، ليذوقوا الموت مع رفاقهم على أيديكم أيها الشجعان، لكي لا يبقى من المعتدين أحدًا"، ثم صرخ: "الموت للغرباء، الموت للغرباء"، وأخذ رجال القبيلتين يرددون الهتاف معًا بصوت يشق عنان السحاب، وفي تلك اللحظة وأمام أنظار الفريقين، تفجر بركان من تحت ماء البحر، وراح يقذف

الحمم في السماء مع الأطواف القادمة وركابها، فتساقطوا في البحر واختفوا، وأخذت الحمم والحجارة تتساقط في محيط المكان، ووقع بعضها في النهر وعلى جانبيه، فَقُتِل عند الشط من جراء ذلك رجلين من أصحاب الأطواف، أما على الضفة الغربية فقد حالف الحظ سادر وقومه، ولم يُصب أي منهم.

كانت عقول الفريقين على جانبي النهر مخطوفة من هول ما يجري، وتكاد الدماء أن تجمد في عروقهم، ولم يكن في وسع أي منهم فهم ما يحدث.

لم يستمر تفجر البركان لأكثر من دقيقتين، كان الجميع بعدها مشدوهين، ما عدا بضعة رجال من أصحاب الأطواف تحركوا لتفقد رفيقيهم الصريعين، ثم بدأ الجميع يعودون إلى الحياة على مهل.

وبينما كان قائد أصحاب الأطواف ينظر مثل غيره ناحية البحر، قال له رجل من أصحابه بصوت يفيض رعبًا: "لقد اختفت تلك المياه الحمراء"، فأجابه القائد: "لابد أن ذلك الشيء شديد السخونة، فقد أصبح الهواء ساخنًا".

وفي تلك اللحظة على الضفة الأخرى، انبرى رفيق النهر حكيم القبيلة الشرقية من بين رفاقه الملتفين حول سادر، متقدمًا نحو الشط، وراح ينادي أصحاب الأطواف عبر النهر، وخاطبهم قائلًا: "لقد رأيتم بأعينكم أيها الأشقياء غضب الإله مما تفعلون، وكيف صَنَع برفاقكم وأطوافهم، أمّا أنتم فلم يمهلكم إلا لتثوبوا عن غيكم، فإن لم تنتهوا أيها الحمقى، فلسوف يحيق بكم العقاب العظيم"، ثم أضاف مشيرًا بيده نحو سادر والحشد المحيط به: "يجب أن تطلبوا الصفح من قائدنا ومنا جميعًا قبل فوات الوقت، فلا أظن الإله يطيل إمهالكم أيها الأشقياء، وهذا بما سول لكم جشعكم، وطلبكم ما لا تملكون".

استمع قائد أصحاب الأطواف على الضفة الأخرى إلى حكيم القبيلة الشرقية ولم يُعلِّق، فتوجه إليه رجاله والرعب لا يزال يغشى أبصارهم، يسألونه عن

فحوى ما سمع، فلمّا نقل لهم معنى مَقَالة الرجل، ازدادت رهبتهم، وقال أحدهم: "أيها القائد، لربما كان الرجل صادقًا في ما قال، وأن ذلك العذاب سيعود إن لم نترك هذا المكان".

قال شادر: "لا تصدقوه، وحق الصخرة المقدسة ما قصد إلا إفزاعكم"، فجاء الرد على شادر سريعًا من رجل آخر من قومه قائلًا: "ألم نر بأعيننا كيف هلك رفاقنا في البحر؟ فما الذي نرجوه بعد ذلك من البقاء هنا".

وقال غيره: "لنعد إلى أرضنا أيها القائد".

أدرك شادر أنه أخطأ حين أخبر قومه بمعنى كلام رفيق النهر، ولولا أنه كان مُنشغل الفِكْر بما يجري، لما أخبرهم، أو لحرَّف معنى الخطاب بما يوافق هواه.

لم يجد شادر أمامه إلا أن يحاول استثارة عزيمة رجاله، فقال: "ما بالكم ضعفتم ولمَّا يبدأ القتال بعد؟ أروني بعض شجاعتكم".

فأجابه على الفور أحد رجاله: "لو كان قتالًا لقاتلناهم كما فعلنا من قبل، أما هذا الشيء الثائر من تحت البحر فكيف نقاتله؟ وإن شئت الحق أيها القائد فأنا لا أشك أنه غضب الصخرة المقدسة لمخالفتنا إياها، ويجب أن نصلح خطأنا ونترك هذه الأرض، حتى وإن كانت مليئة بالخير".

وتعالت أصوات القوم مُؤيدة: " لنغادر، لنغادر"، وبينما كان شادر يفكر كيف يواجه الموقف الجديد، أقبل ثلاثة من رجاله مهرولين من جهة الشاطئ، ورفع أحدهم صوته مخاطبًا شادر: "أيها القائد، لقد أكَلَت تلك المياه الحمراء ما وصلت إليه من أطوافنا".

فسأله شادر: "وهل المياه الحمراء لا تزال هناك؟" فأجاب الرجل:"لا، لم يبق منها شيء، وقد تحول بعضها في مياه الشاطئ إلى حجارة شديدة السخونة،

وعندما لامستها بطرف أُصبعي لسعتني كلدغة الأفعى أو أشد"، وعندها عم اللغط بين أصحاب الأطواف، وتداخلت أصواتهم المشحونة بالرعب.

فقال شادر: "تجلَّدوا أيها الرجال، وأظهروا شجاعتكم المعهودة، فليس بينكم جبان ولا متخاذل"، ولم يكد شادر يكمل كلماته لرجاله، حتى صاح أحدهم من وراء الجمع المحيط به وهو يشير إلى دخان يتصاعد من مكان قَصِي داخل الغابة قائلًا: "انظروا هناك"، فالتفت الجميع ناحية الدخان، وبينما كانوا يحدقون بذهول، اندلع من وسط الدخان باتجاه السماء لسان عظيم من اللهب، فزاد القوم رعبًا على رعبهم، وعلا صُراخ بعضهم، ورفع البعض الآخر أصواتهم بين متذمر ومطالب بالمغادرة.

فقال قائد أصحاب الأطواف الذي لم يهتز لهول ما يجري حوله: "لقد نكصتم وخار عزمكم حتى قبل أن يبدأ القتال".

فقال الرجل الذي كان أول من شاهد الدخان: "أنت قائدنا يا شادر وسنبقى لك مطيعين، لكن لم يبق لنا في هذه الأرض رجاء وإن كانت غنية، فأعدنا إلى أرضنا لنطلب العفو من الصخرة المقدسة، فلم يصبنا ما أصابنا إلا بسخطها".

وجاءت أصوات القوم مؤيدة: "إنه محق" "لنغادر هذا المكان" "لنغادر ونطلب صفح الصخرة المقدسة".

فلما رأى شادر أن جميع رجاله - باستثناء عدد قليل - مجمعون على الرحيل، أُسقط في يده؛ لأنه يدرك أن الاعتماد على اليائسين عبث، وخسارة للتحدي حتى قبل أن يبدأ، وبدا له أن مواجهته مع القبيلتين برجال تهاوى عزمهم، سيكون هدية للطرف الآخر لا لزوم لتقديمها له، فقال: "حسنًا، استعدوا للمغادرة". وما أن سمع رجاله مقالته حتى أطلقت حناجرهم تهاليل الفرح، فأضاف مستدركًا: "ولكن عليكم أن تبدأوا بصناعة أطواف عوضًا عن ما

خسرناه من أطواف، وأنا سأتأكد من عدم وجود المزيد من المياه الحمراء في البحر".

فقال أحد الرجال الذين جاؤوا قبل قليل من الشاطئ: "لا يوجد المزيد من المياه الحمراء أيها القائد".

فقال شادر لرجاله: "إذن باشروا بصناعة الأطواف".

ولرغبتهم الحارقة في المغادرة، انطلقوا من فورهم نحو الغابة يجمعون الأخشاب وجذوع الأشجار الجافة، كما راحوا يجمعون لحاء الأشجار والأغصان التي تصلح كحبال لِضَم أخشاب الأطواف وشَدّها إلى بعضها.

لم يفهم رابون وماس شيئًا من معركة الجدال التي احتدمت بين أصحاب الأطواف وقائدهم، وأرادا معرفة سر اندفاع القوم المفاجئ نحو الغابة، فاقتربا من شادر، وتوجه إليه رابون بالسؤال عن ما يجري، ولمّا أطلعهما شادر على واقع الحال، لم يجدا ما يدفعهما إلى المشاركة في الحملة العاجلة لصناعة الأطواف، لأن رحيل أصحاب الأطواف كان مساويًا في نظرهما لانتصار القبيلتين.

ومشى شادر باتجاه البحر تاركًا ماس ورابون واقفان في مكانهما. قال ماس: "هل تصدق ما يجري يا رابون؟ أم أننا في حلم؟"

أجاب رابون: "لا لسنا في حلم، لكن يبدو أن الشمس عاقبت هؤلاء الغرباء، وها هم أولاء يفرون أمام سطوتها مذعورين"، وأضاف مبتسمًا: "ألم تر كيف تغيَّروا؟ كانوا منذ قليل كالوحوش الهائجة، وما هي إلا طرفة عين حتى أصبحوا كالحمام الجوازع"، ثم انحسرت ابتسامة رابون وقال: "هل سمعت كيف ينادي هؤلاء الغرباء زعيمهم؟ كأنهم يقولون شادر!"

أجاب ماس: "نعم، لقد سمعتهم.. قد يكون هذا هو اسمه. على أية حال، هؤلاء الغرباء سيصنعون أطوافًا ويرحلون، وسنجد نفسينا وحيدين أمام انتقام

سادر والقبيلتين، ولذلك علينا باللجوء إلى آخر خياراتنا.. الإسراع بالفرار جهة الشلال، قبل أن يغادر الغرباء ويتركوننا فريسة لانتقام سادر".

قال رابون بضيق شديد: "لقد سئمت التنقل والبعد عن الناس، ولن أفعل ذلك مجددًا مهما حدث، حتى لو كان في ذلك هلاكي"، فعلق ماس قائلًا: "إن لم نهرب فهو حتمًا هلاكنا؛ فما أن تتحرك أطواف الغرباء حتى ينقض علينا رجال القبيلتين، بل إن قائد الغرباء المتوحش شادر قد يقتلنا الآن، لأنهم وقد عزموا على المغادرة لم يعودوا بحاجتنا".

كان شادر قد فكّر في كيفية الخروج من حملته على القبيلتين بمكسب، وتذكّر أن رابون كان قبل تفجّر البركان يحاول إقناعه بالتوصل إلى اتفاق لاقتسام الأرض مع القبيلتين، فتوجه صوب رابون وماس عند ضفة النهر، ليخبرهما برغبته في الاتفاق، فلمّا شاهداه يقترب منهما كاد قلب كل منهما أن يسقط بين قدميه روعا، ظنًا أنه جاء ليقتلهما قبل مغادرته.

وحالما وصل إليهما شادر بادر بالقول مُتحدثًا إلى رابون: "لقد كنتَ تدعوني لاتفاق مع القبيلتين كما تسمونهم، ليكون لنا الجانب الشرقي من النهر ولهم الجانب الغربي، وأنا أقول لك الآن بأني قَبِلْت.. نعم لقد عزمنا على العودة إلى أرضنا، ولكن إذا تم ذلك الاتفاق الذي ذكرتَ لي، فسأترك هنا عددًا قليلًا من الرجال ممن أعلم بأنهم أقرب لطاعتي.. سيطمئنهم كثيرًا وجود اتفاق بيننا وبين أصحاب الأرض، وسيزيد من اطمئنانهم أن تبقى معهم كصديق من أصحاب هذه الأرض، وسأجعلك قائدهم. قلت اسمك ماذا؟"

-"اسمي رابون".

-"نعم رابون، وسيكون رفيقك هذا معك لمساعدتك".

-"اسمه ماس".

- "أيًا كان. ستحتفظون لنا بهذه الأرض حتى نعود مرة أخرى، ونحن حتمًا عائدون، وحينها لن نكتفي بالجانب الشرقي، بل سنُحكم قبضتنا على جانبي النهر، وننتقم لك من القبيلتين كما تريد، ولكي يحدث كل هذا، يجب أولًا أن يتم ذلك الاتفاق، فنحصل على هذا الجانب من النهر، حيث ستقيمان مع من أترك معكما من الرجال، فبقاء بعض الرجال هنا، مَهْمَا قَلَّ عددهم، سيقوي من عزيمة الآخرين حين أطلب منهم العودة، لأنهم سيكونون حينئذ مطمئنين إلى وجود رفاق لهم يقيمون في هذه الجنة".

قال ماس وقد أسعده ما سمع، ودون انتظار رد من رابون: "لقد اخترتَ الصواب أيها القائد، ونحن رهن أمرك في كل حين، ونريد الآن الحصول على موافقة الطرف الآخر لكي يتم الاتفاق، أقصد موافقة الحقير سادر".

كان ما يسمعه شادر يعطيه تأكيدًا إضافيًا بشأن هوية سادر، وكان يكبح رغبته في السؤال عن سادر وقبيلته بقدر ما يستطيع، لأنه لم يكن يريد لأحد أن يعرف بأن قبيلة سادر هي قبيلته الأصلية.

قال شادر ردًا على ما قاله ماس: "وكيف نحصل على موافقة الحقير سادر كما تسميه؟ من سيذهب للحديث معه؟"

فأسرع رابون بالقول: "أرى أيها القائد أن يذهب ماس إلى سادر للحصول على موافقته، فقد نجح من قبل في إتمام اتفاق مماثل مع سادر"، ثم حوَّل رابون نظره نحو ماس وأضاف: "إنها فرصتك يا ماس لتخدع سادر بهذا الاتفاق، كما خدعنا بالاتفاق ذاك".

فطار صواب ماس وجحظت عيناه، وقال: "لقد حاولت قتل سادر أيها القائد، فكيف أذهب بقدميَّ إليه لأُمَكِّنه من عنقي، والرأي أيها القائد أن يذهب رابون إليه"، فانتفض رابون كالملدوغ وقال: "ماذا تقول أيها الأحمق؟ بل تذهب

أنت، ففكرة الاتفاق كانت فكرتك"، وأضاف مخاطبًا شادر: "أنا أول من وقف معكم أيها القائد، ولا بد أن الحقير سادر يحقد علي، كما أن هناك أسباب أخرىٰ تمنعني من الذهاب إليه، حتىٰ لو كان في رفضي الذهاب إليه هلاكي"، فقال شادر مستفسرًا: "وما هي هذه الأسباب الأخرىٰ التي تجعلك تفضل الهلاك علىٰ الذهاب إلىٰ سادر؟"

فأجاب رابون: "لقد كنتُ قائد القبيلة صاحبة كل هذه الأرض، ثم جاء الماكر سادر وغرَّرَ علىٰ رجال قبيلتي، بمعاونة هذا الأحمق، حتىٰ نصبوه قائدًا لهم مكاني، فكيف أذهب إليه بعد ذلك أو أطلب منه شيئًا".

فعلق شادر: "إذن فهذا هو ما جرىٰ.. حسنًا، ورفيقك هذا الذي تظن أنه أقدر منك علىٰ إقناع سادر بالاتفاق، ما شأنه؟"

قال رابون: "اسمه ماس أيها القائد كما أخبرتك من قبل، وهو حكيم القبيلة، لكنه كان يحسدني علىٰ الدوام لكوني قائد القبيلة، ثم.."

فقال ماس مقاطعًا: "كذبت".

فانتهر شادر ماس: "دَعْهُ يكمل".

فاستأنف رابون الحديث قائلًا: "ثم دخل أرضنا سادر وقبيلته، وأقاموا علىٰ هذا الجانب من النهر، حيث نقف الآن، فأرسلتُ ماس هذا لإقناع سادر بأن نقسم الأرض بين القبيلتين، لندرأ بذلك اقتتالهما، ولقد استطاع أيها القائد أن يقنع سادر بذلك، فهو بارع في التَّحَدُّث والمحاججة، ولذا فهو خير من يستطيع اليوم أن يقنع سادر والقبيلتين بتقاسم الأرض معك".

-"لا تستمع إليه أيها القائد فهو مخادع".

-"بل أنا صادق فيما قلت".

زجرهما شادر بقوة قائلًا: "توقفا عن الجدال"، وأشار إلىٰ ماس وقال بنبرة حازمة: "ستذهب أنت لتعرض علىٰ سادر اقتسام الأرض، لقد فهمتُ أنك الأقدر علىٰ ذلك".

قال ماس وهو لا يكاد يستسيغ بلع ريقه: "أستطيع أيها القائد أن أكلمهم من هنا، دون الحاجة إلىٰ عبور النهر".

فأمسك شادر برقبة ماس وقال وعيناه تشعان بنظراته المرعبة: "كُفَّ عن الحديث. ستعبر النهر الآن لتقنع سادر بالاتفاق، وأنصحك من أجل سلامتك أن لا تفشل".

نظر ماس إلىٰ رابون وهو يكاد يتميَّز من الغيظ، ثم أعاد بصره نحو شادر وقال بهدوء متصنع: "حسنًا أيها القائد، أنا طَوْع أمرك، سأنفذ ما أمرتني به".

علىٰ الضفة الأخرىٰ كان رجال القبيلتين محتشدين غير بعيد عن الشط، وعندما شاهدوا ماس يدخل النهر ويسبح باتجاههم تَوَعَّده بعضهم بالقتل، فقال سادر رافعًا صوته ليسمعه الجميع: "لا تَمَسُّوا ماس بسوء حتىٰ نرىٰ فيمَ قدومه".

خرج ماس من النهر وتقدم نحو الحشد، وقال علىٰ الفور متوجهًا بالحديث نحو سادر: "لقد أرسلوني إليك يا زعيم، إنهم.."

فقاطعه ظريف بالقول: "عليك اللعنة، تُكلم سادر وكأنك لم تحاول قتله"، فقال سادر وهو يتقدم نحو ماس: "دعه يكمل، ولكل شيء حين".

عندها بلغ خوف ماس ذروته وقال وهو يشير بيده نحو الضفة الشرقية: "لقد جئتكم مرسلًا من أصحاب الأطواف، وإذا جرىٰ لي مكروه عندكم فلن

يكونوا سعداء"، قال بومبا: "هل تهددنا بالغرباء أيها الوغد؟ دعني أقتله يا سادر".

فَرَدَّ سادر: "تمهل يا بومبا ودعو الرجل يتكلم".

وتقدم حشد رجال القبيلتين لسماعِ ماس الذي عاد إلى الحديث قائلًا: "إن زعيمهم يعرض عليكم اقتسام الأرض، بحيث يكون الجانب الشرقي من النهر حيث هم الآن لهم، والجانب الغربي لكم، فتتجنبون أنتم وهم شرور القتال".

فتعالت الأصوات "غدار"، "لنقتله"، "لن نعطي أرضنا للغرباء".

قال سادر لماس بثبات وثقة: "عد يا ماس إليهم وقل لهم بأننا سنتشاور في ما جئتنا به، ثم نخبرهم بعد ذلك بردنا".

تراجع ماس وقفز في النهر بسرعة وخفة، وسبح عائدًا من حيث جاء بِفَرَح، كالعائد من لهاة الموت.

قال سادر لحشد رجال القبيلتين: "كونوا على حذر من الغدر هذه الليلة، ولتبق الحراسات على اتساقها الذي وضعناه، وليلحقني أهل المشورة العشرة إلى الكوخ الحجري، من أجل أن نتشاور هناك بروية في ما يعرضه الغرباء علينا".

ولمّا وصل سادر وأهل المشورة العشرة إلى غرفته الحجرية، وجدوا أن دمارًا شنيعًا قد لحق بها وبغرفة المخزن، فقد سقطت بعض حمم البركان على غرفة سادر وأحرقت أخشاب السقف، وامتدت النيران إلى سقف المخزن، وسقط السقفان المحترقان بالكامل.

كان الحريق في آخر لحظاته، وكان من الواضح لسادر ومستشاريه أن ما يرونه أمامهم هي النار التي كانت معرفتهم بها محدودة، لكنهم لم يضيعوا الوقت في المعاينة والبحث عن المسببات واستقصاء الأضرار، وعقدوا اجتماعهم في العراء

خارج الغرفتين، وأسفر اجتماعهم عن قبول العرض الذي حمله إليهم ماس، شريطة أن يكون للطرفين الحق في خيرات الغابة.

وبعد انفضاض الاجتماع، بعث سادر رفيقه هميان لاستدعاء ظريف، وحالما جاء قال له سادر: "لقد رأينا يا ظريف أن نقبل ما عرضه علينا أصحاب الأطواف، لكني لست مطمئنًا إلى صِدْقِهِم وجِدِّيتهم في الاتفاق، وأريدك أن تذهب مع هميان خلسة إلى الضفة الشرقية، وتراقبان تحركاتهم.. سيكون عليكما أن تقطعا النهر من مكان بعيد عن الأنظار في الجنوب، ثم تدخلان الغابة، ومن هناك ستُخفي الغابة تحرككم، فتقتربون من مكان أصحاب الأطواف حتى تصبحون خلفهم تمامًا في الغابة، ولن تعدما دغلًا أو شجرة كثيفة الأغصان تخفيكما وأنتما تراقبان.. أنا أثق بأنكما ستنجحان، فلا تخيبا ظني".

قال ظريف: "ولماذا يكون عَلَيَّ أنا من بين المئات من رجال القبيلتين أن أقوم بما ذكرتَ يا زعيم؟ هذا عمل يتطلب جهدًا وقوة، وأنتم لا تعطونني شيئًا من اللحم الذي تجمعون، ولهذا ليست لدي القوة الكافية لهذا العمل الشاق"، ضحك سادر وقال: "ليس هذا وقت التَظَرُّف، نحن في خطر كبير، ولا ندري ما هو مصيرنا، وقد اخترتكما لهذا العمل لثقتي في ذكائكما وقدرتكما".

-"حسنًا يا زعيم، متى تريدنا أن نذهب؟"

-"الآن."

النار

على الجانب الشرقي من النهر كان أصحاب الأطواف منهمكين في صناعة الأطواف، على مرأى من رجال القبيلتين، وبلغ نبأ نشاطهم ذاك سادر، لكن لم يتبين له تمامًا الغاية منه، لأن عرض الاتفاق الذي جاء به ماس يدل على أن أصحاب الأطواف متشبثون بالأرض، ولم يَلُح في خاطر سادر أن قائد أصحاب الأطواف يروم حيازة الأرض بالاتفاق، قبل أن يرحل مرغمًا تحت ضغط رجاله.

وعند الظهيرة توجه سادر وجمع من رجال القبيلتين نحو ضفة النهر، فألفوا شادر على الضفة الأخرى يراقب ما يجري من فوق صخرته الأثيرة، وصاح به سادر عبر النهر قائلًا: "لقد قبلنا باقتسام الأرض معكم، فتكون لكم أرض الجانب الشرقي من النهر، ولنا أرض الجانب الغربي، على أن يبقى لنا الحق كما هو لكم في صيد الغابة وثمارها".

كان شادر يتحرَّق لسماع هذه الموافقة قبل أن يعرف سادر بأنهم مغادرون، فقال على الفور: "ونحن موافقون، وأعطيكم الوعد والعهد بالالتزام بهذا الاتفاق"، فأجابه سادر: "وأنا أعد بالالتزام به".

في تلك الأثناء كان ظريف وهميان يجتازان النهر من مكان بعيد في الجنوب، ويدخلان الغابة، ليتوجها مُتَسَتِّرَين بأشجارها إلى حيث يتواجد أصحاب الأطواف، لمراقبتهم عن كثب من الجهة الأخرى، كما استمرت حالة التيقظ من جانب القبيلتين تَحَرُّزًا وتَحَوُّطا.

وفكّر سادر بأن الأوان آن لتَفَحُّص ما جرى للغرفتين، فانطلق إلى هناك مع بعض المقربين منه، وحين وصلوا وجدوا بعض نساء القبيلتين سبقنهم إلى

المكان، وحذَّرتهم النسوة بهلع من ملامسة الحطام، وأخبرتهم أن إحداهن لامست جزءًا من الحطام بيدها فتعرضت يدها للسع شديد.

وبدت لهم آثار الحريق غريبة، لأن أبناء القبيلتين لم يكونوا يعرفون عن النار إلا ما تَذكُرُه الحكايات المتوارثة، ولم يسبق لأي منهم رؤيتها، باستثناء عدد قليل من المُسنين الذين رأوا في الماضي نيرانًا تسببت بها بعض ضربات الصواعق، ولذلك كان أولئك المسنون هم أول من أطلق على البركان اسم نار البحر.

وكان هناك ما يشبه الموروث المشترك لدى القبيلتين بشأن النار، فقد كانوا يتناقلون عبر الأجيال أن أسلافهم البعيدين كانوا يُطوِّعون النار، ويستضيئون بها في الظلام، ويستعملونها في ما يُسمى إحراق الأشياء، أو التأثير فيها.

وبينما كان سادر ومن معه يعاينون آثار الحريق، التحقت بهم ناشا زوجة سادر، فقال لها زوجها: "لقد نقلتُ لهم قولَكِ أن نار البحر تسببت بكل هذا، فلم يفهموا، والحق أني أيضًا لم أفهم، ولم أجد الفرصة لسؤالكِ".

فردَّت ناشا: "حسنًا، لقد رأيتُ ما لم تروه، فحين خَرَجَت نار البحر الغاضبة من تحت الماء، والأحجار تتساقط على أماكن كثيرة، كنتُ ومعي بعض النسوة نقف فوق التل الأوسط، لنشاهد ما يجري عند النهر، ورأيتُ بعض الحجارة تتساقط على كوخنا، لكنني لم أشهد بعد ذلك ما جرى للكوخين؛ لأننا بعد توقف نار البحر نزلنا من التل باتجاهكم".

على الضفة الشرقية لم يؤخِّر ظلامُ الليل استكمال صناعة الأطواف؛ لأن أصحاب الأطواف أعدُّوا كل شيء خلال النهار، وحين حلَّ المساء لم يكن متبقيًا عليهم لإتمام العمل سوى ربط الأخشاب، فاتصل عملهم طوال الليل، ولم يطلع أول أضواء الصباح إلا وقد أُنجِزَت صناعة الأطواف.

وانتخبَ شادر بعناية شديدة خمسة عشر رجلًا من أصحابه، ليطلب منهم البقاء على الضفة الشرقية وانتظار عودته، وكان هؤلاء الذين وقع اختيار شادر عليهم من الذين اعتقد بأنهم أدنى إلى طاعته، وجُلُّهم من القِلَّة التي لم تضغط عليه للرحيل، فانفرد بهم جانبًا وحدَّثهم بما يريد، لكنه واجه صعوبة بالغة في إقناعهم بالبقاء، فأخبرهم بأنه تصالح مع قائد القبيلتين، واتفق معه على تقاسم الأرض، وأن الضفة الشرقية باتت الآن خالصة لهم بسلام، وبرضى القبيلتين وإلههم. ولمزيد من طمأنتهم أخبرهم بأن رابون وماس سيبقيان معهم؛ لكونهما من أصحاب الأرض ويعرفان تفاصيلها، وأخبرهم أن الرجلين هما مَن أشارا عليه بالاتفاق مع القبيلتين، وأن بقاءهما معهم سيكون مفيد لهم، ثم أقسم لهم أغلظ الأيمان بأنه سيعود للالتحاق بهم، وضغط عليهم كثيرًا حتى قبلوا.. وإن كان على مضض.

لم يَحِن ضُحى اليوم الجديد إلا وأصحاب الأطواف قد صفّوا أطوافهم على شاطئ البحر، ووقفوا بجوارها متلهفين للرحيل، لا يؤخرهم إلا وصول قائدهم.

وكان هميان وظريف في ذلك الوقت يختفيان في الغابة، قُبالة المكان الذي يُفْتَرَض أن أصحاب الأطواف يتواجدون فيه، وفي نيتهما أن يقتربا ببطء من مكان أصحاب الأطواف ليرصدا كل ما يقومون به، لكنهما لاحظا اختفاء الأصوات وسكون الحركة، فاقتربا إلى طرف الغابة، وتخفيا بين شجيرات هناك، فتبين لهما خلو المكان الذي كان يعج بالمئات من أصحاب الأطواف، باستثناء مجموعة قليلة من الرجال بقرب الغابة، ولم تكن تلك المجموعة سوى شادر والخمسة عشر رجلًا الذين طلبَ منهم البقاء، ومعهم رابون وماس، وكان شادر لا يزال يوصي رجال المجموعة التي ستبقى، ومما قاله شادر لهم، أن من

الأفضل خلال غيابه أن يكون رابون قائدهم، لمعرفته بالمكان أكثر منهم، وبعد أن فرغ شادر من كلامه، توجه بالحديث إلى رابون وماس بلغتهما، وكان هميان وظريف من مكانهما بين الشجيرات يسمعان أطرافًا من توصيات شادر لرابونٍ وماس، وسمعاه وهو يحثهما بحزم على تقديم كل العون لمجموعة رجاله الخمسة عشر.

بعد ذلك توجَّه شادر نحو شاطئ البحر ليلتحق برفاقه الذين كانوا يستعجلون قُدومه، ولحقه الخمسة عشر رجلًا الذين طلب منهم البقاء ومعهم رابون وماس، ليشهدوا مغادرة شادر ومن معه.

أما هميان وظريف فقد سارعا بالخروج من الشجيرات ليعودا إلى الجهة الغربية، ويبلغا سادر النبأ الكبير.

لكن سادر علم برحيل أصحاب الأطواف قبل أن يصل إليه ظريف وهميان، فقد كان مشهد الرحيل يجري أمام أعين المرابطين من رجال القبيلتين عند الشط، ووصل النبأ إلى سادر وهو يجلس بقرب مسكنه مع زوجته وابنه، بينما مادو الحاذق يتفحص بقايا الحريق، فهب الثلاثة نحو الشط لرؤية ما يجري، تاركين مادو الحاذق منهمك بالكامل في عمله.

استولت الدهشة على سادر وأبناء القبيلتين من الرحيل المفاجئ لأصحاب الأطواف، على الرغم من أنهم لاحظوا بقاء مجموعة صغيرة تخلفت عن الرحيل، وظنوا أن أصحاب الأطواف ربما أرادوا إيهامهم بأنهم رحلوا، ليعودوا لمهاجمتهم من جهة الغرب، مع أن تَذَكُّرهم للاتفاق الذي عقده القائدان كان يطمئنهم قليلًا. وأبقى سادر تناوب الحراسة على النظام الذي رتّبه، تحسبًا من الخداع، وحذرًا من الغدر ونكث العهود.

عاد سادر قُبيل الغروب إلى حيث يقع مسكنه، وبرفقته زوجته وابنه وبعض حُرَّاسِه، فيما مادو الحاذق لا ينفك عن تفحص آثار الحريق، وتقليب الجمر، وتحريك الأخشاب المحترقة. وحين حلّ الغسق طلب مادو من سادر السماح له بالبقاء ومواصلة ما يقوم به، فسمح له سادر بذلك، فقد كان في كل الأحوال سيبيت هو وأسرته خارج مسكنهم.

وحين استيقظ سادر في الصباح كان مادو الحاذق يتنقل بين الغرفتين، فلحقه سادر إلى غرفة المخزن وسأله باستغراب: "لا تزال هنا منذ البارحة؟!" فأجاب مادو: "نعم، ولقد عرفتُ عن النار ما سيدهشك، ولكني سأذهب أولًا لأنام، وبعد ذاك أعود لأُخبرك بما لدي"، وصمت مادو لبرهة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه: "ولِمَ الانتظار؟" والتقط من بين الركام قطعة كبيرة من اللحم، ونفض عنها الرماد، وناولها لسادر قائلًا: "تذوَّق قطعة اللحم هذه، إنها من اللحوم التي كانت معلقة هنا في كوخ الطعام.. لا عليك من لونها، فقط تذوقها".

تناول سادر قطعة اللحم بتردد، ثم أمسكها بكلتا يديه وقضم منها قطعة صغيرة، وبدأ بمضغها على مهل، ولم يلبث أن قال: "مذاق هذا اللحم طيب، وأجده لينًا وطريًا تحت أسناني، هل هذا بفعل النار؟" فأجابه مادو مبتسمًا: "نعم، لقد فَعَلَت النارُ فِعْلَهَا هذا باللحوم التي كانت معلقة هنا، فجعلتها تلين و.."

قال سادر مقاطعًا: "لطالما سمعنا أن أسلافنا البعيدون كانوا يطوِّعون النار، ويستعملونها لـ"إحراق اللحوم"، وكنا نضحك ونعد ذلك من التُرّهات".

فقال مادو بثقة: "كما ترى يبدو أنها لم تكن ترهات.. أما تلك النار التي رأيناها تخرج من وسط الغابة بعد توقف نار البحر، فلا شك أن حجارة نار البحر التي تساقطت في الغابة سببتها".

ثم أضاف مادو بتحمس: "ولقد وجدتُ أن في مقدورنا أن نبدأ نارًا من قطع الأخشاب المحترقة قبل أن تبرد، إذا كانت لا تزال حمراء متوهجة"، ثم ركَّز نظره على سادر بجدية متزايدة وقال: "يجب أن نحافظ على استمرار النار أيها القائد، على الأقل يجب أن نحافظ على القطع الحمراء المتوهجة. الآن لدينا الكثير منها هنا تحت هذا الفتات الأسود للخشب المحروق، لكني لاحظت أنها تبرد مع الوقت، وتصبح عديمة النفع، لذلك يجب أن نحافظ عليها متوهجة".

قال سادر: "قُم بما تراه مناسبًا، وإن احتجت للمساعدة قدمناها لك".

فقال مادو بخيلاء: "سأعود بعد أن آخذ قسطًا من النوم لأبدأ نارًا جديدة".

على الضفة الشرقية كان رابون مَزْهُوًا بكونه قائدًا من جديد، حتى وإن كان على حفنة من الرجال. وعاد له الشعور بالترؤس الذي آلمه كثيرًا انتزاعه منه، بل إن الشعور هذه المرة يفوق ما خبره أثناء قيادته لقبيلته؛ لأنه حينذاك كان ينظر إلى قيادته للقبيلة كحقيقة من حقائق الحياة ومُسَلَّماتها، أما الآن، وبعد أن ذاق مرارة خلعه من مكانته، وبعد أن أمضه التشرد، فقد وجد للحياة بين الناس وترأُّسهم رغبة وحلاوة لا يدانيها في القلب شيء.

أما ماس فعلى الرغم من بهجته بالنجاة من الهلاك الذي كان يهدده من طرفي الصراع، إلا أن حسده المستحكم لرابون كان يُنغِّص عليه بهجته، فقد كان غير راضٍ عن اختيار رابون قائدًا للمجموعة، بل كان يرى أنه الأحق بتلك المكانة؛ لقيامه بالمهمة الانتحارية حين أَسْفَرَهُ شادر - بتحريض من رابون - إلى القبيلتين، لعرض الاتفاق عليهم، ولكن ما عساه يفعل أمام شادر غير الإذعان.

وكان ماس يُزَجِّي وقته بمحاولات التواصل مع ميداع، أحد رجال المجموعة التي بقيت من أصحاب الأطواف، وكانت الإشارات وسيلة التواصل الأولى بين الرجلين، وتعلَّم ماس الفَطِن من ميداع بضع كلمات من

لغة أصحاب الأطواف، فاستلطفه ميداع، ونشأت بينهما أُلفة، وشعر ماس أن قُربه من ميداع سيجعله أكثر أمنًا من بطش شادر المرعب عند عودته المرتقبة، فقرر الاجتهاد في تَعلُّم لغة أصحاب الأطواف.

وكان الكثير من رجال ونساء القبيلتين - كمألوف العادة - يقطعون النهر إلى الضفة الشرقية كل يوم، قاصدين الغابة للصيد وجمع الثمار، وربما رأوا في طريقهم رابون وماس والمجموعة الباقية من أصحاب الأطواف، لكن من دون أدنى تفاعل معهم، وظل الطرفان متمسكان بالاتفاق، فلم يتعرض أحدهما للآخر، ولا تعدى على أرضه.

مرت عشرة أيام هادئة منذ مغادرة أصحاب الأطواف وبقاء مجموعة صغيرة منهم على الضفة الشرقية، كان مادو الحاذق خلالها عاكفًا على المحافظة على اتقاد الجَمْر داخل الغرفتين الحجريتين، ثم بدا له أن يسمح لأفراد القبيلتين بأخذ أقباس من ناره، كي يسهم الجميع في اتصال حياة الجمر، وهكذا انتشر في القبيلتين استعمال النار كالنار في الهشيم، وأخذ مادو الحاذق يتنقل بين أفراد القبيلتين يعلمهم فن إشعال النار من الجمر، ويؤكد لهم ضرورة الإبقاء على الجمر حيًا تحت الرماد، محذرًا من مغبة انطفاء الجمر لدى الجميع في ذات الوقت.

انقضت بضعة أسابيع والهدوء سيّد الضفتين، وذات يوم كان ماس وميداع يجلسان معًا كعادتهما، ويستمتعان بحوارهما الصعب بالكلمات التي كانا يتعلمانها من بعضهما باطِّراد وبشغفٍ كبير، مستعينان في الحوار بالإشارات حين تضيق الكلمات. وسأل ميداع ماس عن سادر قائد القبيلتين، فأخبره ماس بأن سادر وقبيلته جاؤوا من أرض قَصِيّة عند أعالي النهر وراء الشلال، فتَذَكَّرَ ميداع أن هذه هي صفات الأرض التي كان شادر قد قال لهم منذ أمد بعيد أن قومه

الأصليين يعيشون فيها، وقال لماسٍ بأن تلك الأنحاء ربما كانت الأرض التي جاء منها قائدهم الرهيب شادر.. فاعتدل ماس في جلسته وطلب باهتمام تأكيد ما فهمه، فأكد له ميداع أن شادر ليس منهم، ثم أخذ يروي لماس بحماسة قصة وصول شادر إلىٰ أرضهم، باذلًا الوُسع لكي يَفْهَمَ ماس روايته، ففهم ماس أجزاءً من الرواية، وفاتته أكثر الأجزاء.

وكان مُلَخَّص ما حاول ميداع قوله: أنهم قبل مدة طويلة تمكنوا من صناعة الأطواف الكبيرة، فأخذ بعضهم ممن يصيدون الأسماك يستعملونها ابتغاء الوصول إلىٰ أماكن أبعد في البحر، وفي إحدىٰ رحلات الصيد تلك رأىٰ نفرٌ منهم في عرض البحر جذعًا طافيًا، فاقتربوا منه، فإذا رجل يتعلق بالجذع وقد بلغ به الإنهاك والعطش كل مبلغ، وأشرف عليه الهلاك، فانتشلوه وهم يحسبونه من قومهم؛ لأنهم كانوا يظنون أن لا بشر سواهم، ولكثرتهم ظنوا أنه أحد قومهم الذين لا يعرفونهم، بينما كان ذلك الرجل هو شادر.

وبعد أن وضعوه علىٰ الطوف وجدوا أن ساقه اليسرىٰ مكسورة، وذُهِلوا من كلامه غير المفهوم، فأخذوه إلىٰ قائدهم المُسن، فلمّا رآه القائد طلب تجبير ساقه، وذلك بربط أعواد علىٰ جوانب الساق لتثبيت عظامها، ومنعها من الحركة.

وأنهم ذُعِرُوا أول الأمر لمّا تبين لهم أن الرجل ليس منهم، لكن بعد أن تأكد لهم أنه بشر لا يختلف عنهم في شيء، أعادوا محاولة الكلام معه، وسؤاله عن خبره، فلا هو فهمهم ولا هم فهموه، وعندها أيقنوا أن له منطق مختلف، ولتردي حالته لم يلحُّوا عليه كثيرًا بالإشارات.

وأن قائدهم المُسِن حَرِصَ علىٰ العناية بشادر، وأعجبه منه جَلَده وصلابته، ومحاولته مساعدتهم في بعض شؤونهم حتىٰ قبل أن يُشفَ، فاستبقاه القائد معه بعد أن شُفي، فتعلَّم شادر شيئًا من كلامهم. وأن القائد لمّا لم يكن له من الذرية

غير بنت وحيدة، اتخذ شادر له رَبِيبًا، ثم زوَّجه من ابنته، فتوثَّقت العُرَىٰ بين الرجلين، وصار شادر عصا القائد الغليظة، يضرب بها من يشاء أنَّىٰ شاء.

وأن شادر بمرور الوقت أجاد تعلّم منطقهم، وأخبرهم أن قومه يعيشون في أرض بعيدة عن البحر، بجوار ماء جارٍ، وأن قومه الأشرار قاموا برميه من مُرْتَفَعٍ في ذلك الماء المتدفق بعد أن كبلوا يديه، فكُسرت ساقه عند ارتطامه بالصخور في قعر الماء، وجَرَفَه الماء المتدفق بعيدًا، فتعلق بجذع طاف ولم يكد، مستخدمًا عضديه، ومُكِبًّا علىٰ الجذع بصدره وإبطيه، بسبب تكبيل يديه، وأنه أخذ يداوم علىٰ حك قيوده بذلك الجذع، فلم تتقطع القيود إلا وقد بلغ البحر، وأنه قضىٰ ليلتين يتقاذفه موج البحر حتىٰ وجده الصيادون.

ومما حاول ميداع قوله لماس: أن قائدهم المُسِن ازداد بشادرٍ إعجابًا بعد سماعه لقصة نجاته، وتأكد له أن شادر رجل صلب المراس شديد العزم.

وأن قائدهم بعد بضع سنين أخذ يهيئ لشادر كي يخلفه قائدًا بعد موته، وقال للقوم بأنه مُطمئن إلىٰ قدرة شادر علىٰ قيادتهم كما ينبغي، ثم مكنَّه من القيادة تحت أنظاره في أواخر أيامه، فأصبح شادر منذئذ قائدهم.

وسأل ميداع بدوره ماس عن القبيلتين، فراح ماس - وقد دنىٰ وقت الغروب - يشرح بجهد كبير قصة اتحاد القبيلتين، وبدأ المساء بمد أستاره، تساعده علىٰ تكثيف الظلام تلك الغيوم التي تَحَشَّدَت في السماء وتراكمت.

في ذات الوقت علىٰ الجانب الغربي من النهر كانت أضواء النيران تتلألأ من أماكن شتىٰ، فقد كان أبناء القبيلتين لا يزالون مبهورين بالظاهرة الغريبة، وبدت لهم النار كتلاقٍ أسطوريٍ للخيال والجمال، كما بدت لهم بلهبِها الزاهي المتمايل خليطًا فريدًا من اللين والقسوة. وكان ماس قد أوقف حديثه لميداع؛ وذلك جَرَّاء هبوط الليل وتدني رؤية الإشارات المُساعدة علىٰ التواصل، وعندما

وقعت عينا ميداع على أضواء النار على الضفة الأخرى انتفض كالملدوغ وهب واقفًا، ثم قال وهو يحدق نحو أضواء النيران: "انظر يا ماس، يبدو أنه غضب آلهتكم جاءنا من البر هذه المرة"، وصرخ بارتياع: "ما الذي جعلني أبقى في هذه الأرض؟ عليك اللعنة يا شادر تحيق بك أينما كنت".

نَهَضَ ماس مشدوهًا بمنظر أضواء النيران المنتشرة على الضفة الأخرى، وأقبل رابون وبقية مجموعة أصحاب الأطواف متسائلين عن الأضواء الغريبة، فلم يجدوا لدى ماس وميداع جوابًا، وبينما كانوا جميعًا يحدقون في أضواء النيران، والرعب قد أخذ منهم بتلابيب القلوب، لمعت في السماء من عوارض الغيم بروق تشابكت وبدت معها السماء وكأنها تتصدع، ودوَّى في الأرجاء صوت الرعد القاصف، فكادت قلوبهم أن تطير من صدورهم، ثم ما لبثت مياه الأمطار أن انهمرت بغزارة وكأنها حبالًا تَدَلَّت من السماء.

هطلت الأمطار وسادر ورجال القبيلتين في أجواء غامرة بالمرح، يتبادلون بابتهاج زيارات نيران بعضهم بعض، معجبين بقدرة النار على قهر الظلام، والفتيان يهرولون ضاحكين وهم يحملون شُعل النار ليقهروا بها الظلام.

ومن مفارقات الحياة والطبيعة أن هذه الظاهرة التي كان الواقفون على الضفة الشرقية ينظرون إليها والرعب يتملكهم، كانت في الوقت ذاته على الضفة الأخرى تُسعد أبناء القبيلتين، وتمنحهم أجمل ما عرفوا من الأوقات.

لكن هذه المشاعر المتناقضة على الضفتين تبدَّلت فجأة حين أخمدت الأمطار الغزيرة جميع النيران، فانقلبت الموازين، وانعكست الأحوال، حيث اطمأن الواقفون على الضفة الشرقية بعد انطفاء النيران كاطمئنان المستيقظ من الكابوس، بينما عَمَّ الحزن والوجوم أصحاب الجانب الغربي لفراق ظاهرتهم

الجديدة، التي جاءتهم وأحبوها وفقدوها في طرفة عين، كمن استيقظ من حلم جميل.

في ظهيرة اليوم التالي، جمع ميداع بعض الثمار من الغابة، وجاء بها إلىٰ صديقه ماس، وجلسا يأكلان، وسأل ماس ميداع عن أرضهم وموقعها وراء البحر، فأدهشه قولُ ميداع بأن أرضهم ليست وراء البحر بل في وسطه، وتَحُفُّهَا المياه من كل صوب.

وبينما كان الرجلان يستمتعان بالحديث وتبادل المعرفة، مرَّ بهما بعض أفراد القبيلتين وهم في طريقهم إلىٰ الغابة كما دَرَجوا، وكان الفضول يأكل جوف ماس لمعرفة سِرّ الأضواء التي شاهدوها ليلة البارحة، فراح يُجِيل بصره بين العابرين، ويسأل نفسَه مَن يختار منهم ليسأله؟ ممن يملكون أن يتجاسروا علىٰ كسر الصمت المتبادل بين سكان الضفتين؟ وحين تعثَّر بصره بصديق رابون السابق دار، وقع عليه الاختيار، فقد فكر ماس بأن كون دار رجل مِهْذَار سيُسَهِّل عليه جرّه إلىٰ الكلام، فنادىٰ دار ونهض للقائه بينما توقف دار في مكانه، فأقبل إليه ماس مبتسمًا ومبادرًا بالقول: "كيف حالك يا دار؟ لم نلتق منذ زمن، ألا ترىٰ أن من عجائب الصدف أنك قررت إنهاء مرافقتك لرابون والعودة إلىٰ القبيلتين في ذات اللحظة التي قررت أنا فيها ترك القبيلتين والالتحاق برابون، في ذلك اليوم الذي وصل فيه أصحاب الأطواف؟! لقد أخبرني رابون أنك اخترت العودة ذلك اليوم لمساندة القبيلتين، وهذا يؤكد رأيي الدائم فيك بأنك خير رجال قبيلتنا، ولو كنتُ علىٰ الخيار في أمري لكنتُ أنا أيضًا معكم".

قال دار بنبرة ضجرة: "ماذا تريد مني يا ماس؟ لقد طلب سادر منا عدم الحديث معكم، فلا تسبب لي المتاعب"، فقال ماس وابتسامته الماكرة تتمدد: "يبدو أنك تغيرت في الفترة التي افترقنا خلالها، لقد كنتَ لا تخشىٰ أحدًا".

فرد دار بحدة: "أنا لا أخشىٰ أحدًا يا ماس، فقط لا أريد الخلاف مع رفاقي بعد أن خَبِرْتُ البعد عنهم"، ثم نظر إلىٰ ماسٍ وكأنه يسبر دواخله، وأضاف: "وأظنُك قد خَبِرْتَ البعد عنهم طِوَال الأيام الماضية، وتعرفُ جيدًا ما أعنيه.. إن البُعد عن البشر مُرهق، بل هو أشد وأثقل من كل مشاق الحياة، وإن كنتَ لا تعرف ما الذي أتحدث عنه، فلربما أن ما يُخفِّف عنك هو أنك تعيش مع مجموعة من البشر وإن كانوا غرباء".

قال ماس وقد أثَّر فيه تذكُّره لفراق الأحبة والقبيلة: "أنت محق يا دار، وأنا أعرف ما تتحدث عنه.. ولقد كنتُ في الماضي أحسب أنني أعرف معنىٰ الحنين، ولكني ما عرفت معناه علىٰ الحقيقة إلا بعد أن ذُقت أوجاع فراقكم، وأنا الآن راغب بالعودة إليكم أكثر من أي شيء. أما ما يخفف عني فلا أظنه الحياة مع الغرباء ورابون، بل رؤيتكم تمرّون من هنا أثناء ذهابكم إلىٰ الغابة ومجيئكم منها، ولكن تشق علي مشاهدتكم من هذا المكان وأنتم تتحدثون هناك علىٰ الضفة الأخرىٰ وأنا لا أقدر علىٰ العبور إليكم والجلوس بينكم." وصَمَتَ ماس ليستعيد زمام مشاعره، ثم أضاف: "دعنا من هذا يا دار وقل لي ما تلك الأضواء التي كانت عندكم ليلة البارحة؟"

-"إنها أضواء النار".

-"هل تقصد النار التي كنا نسمع من أسلافنا أن الصواعق تصنعها لِمَامًا؟"

-"لا أدري، لكن النار بدأت من كوخ سادر بعد سقوط حجارة نار البحر عليه".

وأنصت ماس بشغفٍ إلىٰ وصف دار للنار وتأثيراتها، وبعد أن أشفىٰ غليل فضوله، سأل دار قائلًا: "هل أخبَرَكم سادر أن قائد أصحاب الأطواف من قبيلته؟" فأجاب دار وقد أذهله السؤال: "لا، لم يقل لنا شيء كهذا.. ولكن

كيف يمكن أن يكون قائد أصحاب الأطواف من قبيلة سادر؟!" فقال ماس وقد استعاد ابتسامته الماكرة التي دفنها حديث الفراق: "وافِنِي هناك داخل الغابة لكي أُقص عليك كل شيء، لا أريد أن يرانا الناس نطيل الوقوف معًا فأسبب لك المتاعب"، وافترق الرجلان ثم التقيا داخل الغابة ودخلا في عمقها قليلًا ليكملا حديثهما.

وبعد أن عاد دار إلى الضفة الغربية لم يقوَ على إمساك لسانه، فأخبر بعض رفاقه أن أصحاب الأطواف يقولون أن قائدهم من أناس كانوا يعيشون عند أعالي النهر، مُضيفًا أنهم بلا ريب قبيلة سادر، فتداولت الألسن هذا الكلام حتى وصل إلى ناشا، ولمّا نقلته بدورها إلى سادر مع السؤال عن مدى صحته، أكَّد لها بأنه صحيح، وأن قائد أصحاب الأطواف ليس سوى شادر الذي رُمي من مرتفع الشلال في زمن والده، بعد أن قتل والديها، مُبرِّرًا إخفاءه ذلك عن أبناء القبيلتين، لعدم رغبته في ترهيبهم بالحديث عن بطش شادر وقسوته، ولكي لا يعتقد أبناء القبيلة الغربية أن النزاع مع أصحاب الأطواف قد تكون له أسباب تَخُص القبيلة الشرقية لوحدها. كما وجد سادر نفسه مضطرًا لإخبار ناشا أنه لم يرد أن تعرف هي بالذات بأمر شادر؛ لما قد يسببه لها ذلك الأمر من انزعاج.

ووضَّح سادر لناشا أنه كان يعتزم الإفصاح عن حقيقة شادر في وقت لاحق، في اجتماع يضم نخبة من وجوه القبيلتين، لكن أَمَا وقد سرى بين الناس أن قائد الغرباء من قبيلته، فلم يعد هناك ما يدعو لتأجيل ذلك الاجتماع.. وهذا ما تم.

وتلقى أبناء القبيلتين حقيقة قائد أصحاب الأطواف دون مشاكل، ولم يحاول سادر معاقبة دار على إشاعته الكلام عن شادر، لأنه أراد أن تنتهي هذه القضية بهدوء.

وهكذا تواصلت لقاءات دار مع ماس في الغابة، وترتب على ذلك أن شاعت بين أبناء القبيلتين تفاصيل قصة نجاة شادر، ووصوله إلى أرض أصحاب الأطواف، وكيف عاش بينهم حتى حاز مكان القيادة.

ومرة أخرى تمسك سادر بالصبر، ولم يحاول معاقبة دار الثرثار على لقاءاته بماس على الضفة الأخرى، وإشاعته لحكايات شادر التي ينقلها له ماس عن صديقه ميداع وأصحاب الأطواف الآخرين؛ وكان مَرَدّ إغضاء سادر عن ثرثرة دار تلك، إلى أن مسألة هوية شادر قد تم تجاوزها بهدوء كما أراد، ولا يرغب بإظهار تضايق أو قلق من الحديث عنها، ومع ذلك شعر دار بخطر استمرار لقاءاته بماس بعدما أصبحت حديث القبيلتين، فجعل لا يلتقيه إلا لِمَاما.

انقضت بضعة أشهر بهدوء لا يعكر صفوها شيء ذو شأن، وفي ذات يوم كان سادر وزوجته وابنهما ومعهم ظريف يجلسون بقرب الغرفتين الحجريتين اللتين أُعِيدَ بناء سقفيهما، فأقبلَ إليهم مادو الحاذق وأمارات السرور ترفرف من محياه، وبادر بالقول وهو لا يزال على بعد منهم: "يا زعيم، لقد صنعت لك شيئًا سيفرحك"، ابتسم سادر وانتظر حتى وصل مادو، فسأله: "ماذا صنعت لي أيها العقل الكبير؟" أجاب مادو بتحمس: "صنعت لك أداة تستطيعُ أن تبدأ بها نارًا"، فقال سادر بلهفة: "حقًا؟" مَدَّ مادو يديه بثقة وفيهما قطع الأداة التي صنعها وقال: "نعم يا زعيم، هذه الأداة هي كل ما نحتاجه لإشعال النار، ولا نحتاج معها إلا إلى قليل من الأوراق والأغصان الجافة.. انظر، سأقوم بتثبيت هذا العود في هذه الخشبة التي شذبتها وجعلت سطحها مستويًا، وحفرت على سطحها حفرة ضئيلة غير نافذة، لِأُثبِّت العود فيها، ثم أَذُر في الحفرة شيئًا من فتات هذه الأوراق الجافة، مع كِسَرًا صغيرة من بعض النباتات الجافة التي تشتعل فيها النار بسرعة، وبعد ذلك أقوم بتدوير العود بسرعة في الحفرة، وذلك

بواسطة هذا الغصن الجاف المقوس الذي ربطت طرفيه بقطعة من الجلد، انظر كيف سأشعل النار الآن"، وراح مادو يعمل على أداته الجديدة أمام نظرات الحاضرين المتحمسة، ولم يلبث الدخان أن بدأ بالتصاعد من الحفرة التي يدور فيها العود، وبعد قليل أخذ شرر صغير يتطاير منها، وانقدحت فيها نار محدودة ذات لهب، فأذكاها مادو بالأعواد الصغيرة المتيبسة، فإذا النار تشب وسط ذهول الحاضرين وفرحتهم، وتعالت أصواتهم بهجة وهم يتابعون مادو وهو يضع الأغصان المشتعلة على الأرض ويضيف لها الحطب والنار تضطرم.

وقف مادو أمام سادر بزهو وقال: "ما رأيك يا زعيم؟" فاحتضنه سادر وقبّل رأسه وقال: "أنت لدي أهم رجال القبيلتين يا مادو"، وحوَّل نظره إلى النار المشتعلة ثم أعاده نحو مادو وقال: "أريدك أن تصنع عشرين أداة مثل هذه الأداة، لنفرقها في القبيلتين، فتشترك كل مجموعة من الأُسر في أداة واحدة.. ستجعلُ النار أكل اللحم أطرى وأطيب، وستمكنهم من مواجهة الظلام الذي يفزع الأطفال"، قال ظريف: "وبعض الكبار أيضًا.. مثلي".

قال مادو باسمًا: "خذ هذه الأداة لك يا زعيم، وسأصنع عشرين أداة أخرى، لتقسمها على النحو الذي ذكرت".

تناول سادر قطع أداة إشعال النار وأخذ يتأملها، ثم قال: "إنها أعظم أداة صنعها البشر".

ولم تستغرق صناعة أدوات إشعال النار العشرين من مادو سوى ثلاثة أيام، وأخذها سادر وقسَّمها على القبيلتين كما ارتأى، وقد كان مُمتنع عن استخدام أداته حتى تكتمل صناعة الأدوات الأخرى، ويفرقها في القبيلتين.

وكان يومًا فريدًا اجتاح فيه الفرح بأدوات إشعال النار أبناء القبيلتين، فشكروا لِمادو الحاذق صُنعه، ولسادر صَنيعه. وحين حل المساء كانت ليلة

مشهودة، أُشعلت خلالها الكثير من النيران فوق قمم التلال وعلى ضفاف النهر، وراح الأطفال يَعْدُون حاملين المشاعل، فكان المنظر بديعًا لمن ينظر من الضفة الأخرى، حيث بدت النيران والمشاعل من هناك في الظلام، كالنجوم والشهب في السماء.

وفي اليوم التالي على الضفة الشرقية، كان ماس ورابون يترقبان على أحرّ من الجمر مرور دار وهو في طريقه إلى الغابة، ليسألاه عن نيران البارحة، فلمّا مرَّ بهما وسألاه، أخبرهما بشأن الأداة الجديدة، وكان هذا أول لقاء بين رابون ودار منذ افتراقهما يوم وصول أصحاب الأطواف.

وعاتب ماس دار لِتَحَامِيه لقاءه في الفترة الماضية، ثم قام بجهد كبير لإحياء الثقة بين دار ورابون، وترميم صداقتهما - على الرغم من بغضه الشديد لرابون - وذلك لكي لا يتردد دار في إمدادهما بأخبار القبيلتين.

وتوالت لقاءات دار بماس ورابون في أدغال الغابة، لتكون لقاءاتهم بعيدًا عن العيون، ومع ذلك حدث أن شاهدهم بعض أبناء القبيلتين، فوصل النبأ إلى ميراك بن سادر، ونقله ميراك بدوره إلى والده، فبلغ الغضب بسادر أقصاه، لتطاول صبره على أفعال دار.

وأرسل سادر اثنين من الحراس لإحضار دار، وحين جاءا به أخذ يُقَرِّعه بحضور ميراك وناشا، ويذكّره بأنه تسامح معه مرارًا مريرة، مهددًا بمعاقبته إن أخطأ كرَّة أخرى والتقى بأصحاب الأطواف. وحاول دار الدفاع عن نفسه بحجة أنه لم يلتق بأصحاب الأطواف، فقاطعه سادر قائلًا: "الخائنان ماس ورابون المساندان لأصحاب الأطواف يُحسبان منهم، ووجود اتفاق بيننا وبين أصحاب الأطواف لتقاسم الأرض لا يعني أبدًا أن نلتقي بأي منهم"، فاعتذر دار وتعهَّد بعدم لقاء ماس ورابون مرة أخرى.

بعد أن غادر دار قالت ناشا لسادر وهي تربت على كتفه: "هوِّن عليك ولا تغضب، فقد بدا على دار الصدق وهو يتعهد بعدم لقاء ماس ورابون مرة أخرى"، فأجاب سادر بحنق ولكن بنبرة غير مرتفعة: "لقد حاول الخائن ماس قتلي هنا داخل كوخي، والخائن الآخر رابون لن يتردد من جهته في إيذائي إن استطاع، فكيف لا يغضبني أن يلقاهما دار ويتحدث معهما؟ أقسم بالنهر المقدس لأحرقنه بالنار إن عاد إلى لقائهما مرة أخرى".

قال ميراك، وقد ظل صامتا منذ حضور دار: "هل هذا هو ما تريدون النار له؟ أن تحرقوا بها بعضكم؟" فالتفت سادر نحو ناشا وقال: "اسمعي ماذا يقول ابنك! إنه يزداد تغيرًا كل يوم منذ رؤيته لذلك الحلم في النهر، ولقد تزايد هدوءه أكثر مما يجب على قائد وابن قائد".

قالت ناشا بلطف: "لم يدخله قلوب الناس إلا ذلك التغير.. ثم هل نسيتَ أن أبناء القبيلتين كانوا على وشك أن يقتل بعضهم بعضًا جرَّاء اختلاف عبادتهم؟ وأنهم كانوا على وشك التفرق بسبب اختلافهم بشأن الزواج؟ لولا أن تدارك ميراك كل ذلك، وتمكن من جَمْعِهِم على دعوته للمحبة والإخاء، وإنهم اليوم ليحبونه ويَعُدُّونه أصلح الناس وأحكمهم، ويأتون إليه رجالًا ونساء يسألونه عن كل أمر، ويطلبون منه أن يمنحهم بركاته، وكل ذلك يساعدك ويُسَهِّل عليك قيادة القبيلتين، ولو..."

قال سادر مقاطعًا: "متى تتوقفين عن ترديد هذا الكلام عن ابنك بخيلاء كل يوم؟ لقد حفظته، وأستطيع أن أكمل بقية ما تريدين قوله، هل أُكمل كلامك؟! أريد ابنك يا ناشا أن يكون صلبًا ومستعدًا لأن يحل محلي بعد موتي"، قالت ناشا وقد عادت لوضع يدها على كتف سادر: "أسأل الإله أن يحفظ لك وله حياتكما"، ثم أضافت بهدوء وود: "اطمئن يا سادر، إن ابنك شديد البأس،

وإذا كان قد أصبح أكثر هدوءًا فما هو إلا لازدياد حكمته، وهذا يجعله أكثر قوة، فَطِب خاطرًا".

قال ميراك لأبيه بابتسامة موحية: "لا يستطيع أحد أن يجابهك بالحجة ويتغلب عليك غير أمي".

فتبسَّم سادر وقال: "أُقر بأنها بارعة في المحاججة والكلام، ومع ذلك لا تستطيع أن تغلبني بالحجة، لكنها تغلبني بما هو أقوى من كل الحُجج"، وضحك الثلاثة وتجاوزوا الكلام عن ميراك.

في الأيام التالية كان أبناء القبيلتين يجربون النار على كل شيء، وعرفوا كيف يمكنهم تسخين الماء وغليه في الأواني الحجرية والفخارية التي كانوا ينقلون الماء فيها، ومن تجاربهم تلك عرفوا كيف يطبخون الحبوب في الماء، وجربوا ذات الأمر مع اللحم فحصلوا على حساء اللحم، وكانت أيامًا تنافست فيها النساء في صناعة الأكلات الجديدة، وفي جودة الطبخ والتفنن فيه.

كان دار برغم تعهده لسادر بعدم لقاء ماس ورابون قد عاد إلى لقائهما، وكان يتم ذلك في عمق الغابة وبتكتم شديد، وسمعا منه عن عجائب النار؛ ولذلك حين كانا يشاهدان أضواء النيران من الضفة الأخرى، كانت نار الحسد تكويهما.

وعرفا من دار إمكانية إشعال النار من الجمر، وكيفية الحفاظ عليه مُشتعلًا، فرغبا أن يأتيهما بجمر ليحصلا على نارهما الخاصة، ويحفظان جمرها متقدًا، ليشعلا النار متى أرادا، ولكن دار فاجأهم بقوله أن ماء النهر سيخمد الجمر أثناء عبوره النهر، فقال له رابون: "سنعطيك طوفًا كبيرًا من أطواف أصحاب الأطواف، فقد صنعوا ثلاثة أطواف ليرحلوا بها إذا اضطروا إلى الرحيل".

فَرَدَّ دار: "أنتما تريدان هلاكي، لأن سادر إذا شاهد النار على ضفتكم، سيعرف أني من جلبها لكم، فانسوا أمر النار".

الجاسوس المزدوج

انقضى أكثر من عام منذ رحيل شادر وقومه وبقاء مجموعة صغيرة من أصحابهم على الضفة الشرقية، وكان رجال تلك المجموعة لا ينفكون يترقبون عودة شادر التي وعدهم بأنها لن تتأخر، ولولا تحرجهم من شادر، وخوفهم عاقبة عصيانه، لرحلوا منذ وقت مبكر.

وكان ماس وصديقه من أصحاب الأطواف ميداع - كغيرهما من قومهما - يأكلان الحبوب طرية، وحين تجف يضربون عنها صفحًا، مع أن ماس كان قد تعلم من ميداع إمكانية جعل الحبوب الجافة أكلًا بديلًا إذا عز الطعام، وذلك بسحقها وتبليلها بالماء وأكلها، إلا أن وفرة الأطعمة الطيبة تمنع اللجوء إلى تلك الأكلة غير المُحببة إلى القلوب، ولا إلى البطون.

وكان يروق لماس وميداع تزجية الوقت بالرسم بالحبوب الجافة، وذلك بنثرها على الأرض على الشكل الذي يرغبان برسمه، فلاحظا بعد ذلك أن هناك نباتات حبوب نبتت في تلك الأماكن، وبذات الأشكال التي رسماها، فعرفا أن إلقاءهما الحبوب على الأرض كان وراء تلك النباتات، وبذكاء استنبطا الوقت المناسب لزراعة بعض الحبوب، لأن رسوماتهما لم تنبت جميعها، كما لاحظا تأثير الماء على النبات.

وشُغِفَ ماس بالزراعة، وراح يزرع الحبوب في أماكن شتى، وحدث أن وجد عددٌ من أبناء القبيلتين في طريقهم بعض زروع ماس، فأخذوا يقطفون سنابلها الخُضر دون أن يخطر لهم بأنهم يعتدون على أملاك خاصة، ولمّا علم ماس في اليوم التالي بما تعرضت له زروعه، وهو الذي يكاد يقدس ما يَزرع، طار صوابه، وأَطْلَعَ بعض من وجد من أبناء القبيلتين على الضفة الشرقية بما

حدث، وطلب منهم إبلاغ سادرٍ أن التعدي على ما استنبت من حبوب يُعَد نقضًا للاتفاق، وأنه سيخبر شادر بما صنعوا عند عودته.

ولَمَّا نُقِلَ لسادر ما قاله ماس، استفزته تهديداته بشادر أول الأمر، لكن اهتمامه سرعان ما توجه إلى إمكانية استنبات الحبوب، فأرسل رفيقه الأقرب هميان للاعتذار من ماس، وليعرف منه كيف يقوم باستنبات الحبوب، فانطلق هميان إلى ماس وقدم له ألطف الاعتذارات، وتعهد له باسم سادر أن لا يتكرر ما حدث، ثم حاول استدراج ماس إلى الحديث عن طريقة زراعة الحبوب، فتفطَّن ماس إلى مُبتغى هميان، وأبدى استعداده لاطلاع هميان على كل معارفه عن الزراعة، مقابل أن يحصل على إحدى أدوات إشعال النار، وبعد أن تشاور هميان مع سادر عاد إلى ماس بالموافقة وأداة لإشعال النار، ففرح بها ماس غاية الفرح، وتعلَّم من هميان كيف يستعملها، ثم بسط لهميان كل ما لديه من أفكار ومعارف تتعلق بالزراعة، فحصل سادر على معارف زراعة الحبوب، وحصل ماس على أداة إشعال النار، فبات كل طرف بما لديه سعيد.

قام سادر بناء على المعلومات المستمدة من ماس بتجربة زراعة بعض أنواع الحبوب في أماكن محدودة، وظل يراقب النتائج ويراكم المعرفة، أما ماس فقد كان على الضفة الأخرى منغمس بالكامل في بهجته بأداة إشعال النار، وبدا كطفل صغير تحصل على اللعبة التي كان يحلم بها، وأخذ يجرب النار على كل شيء يستطيع تجربتها عليه، وكان من نتيجة ذلك أن جرب أثر النار على مسحوق الحبوب المنقوع بالماء، فحصل على الخبز، وتباهى بعمله ذاك أمام دار في أحد لقاءاتهما السرية في الغابة، فلم يستطع دار أن يمسك لسانه عن الكشف الجديد، لكن لخوفه من انكشاف أمر لقائه بماس ورابون، ولِحُبِّه التفاخر، فقد

نسب الفكرة لنفسه حين عَرَّف أبناء القبيلتين على الطعام الجديد.. وطارت طريقة صناعة الخبز بين أبناء القبيلتين.

ولمّا كان ذلك الحدث مُتزامنًا مع نشاط سادر لزراعة الحبوب، فقد جعل سادر يُطَوِّفُ بِفِكْرِهِ في كل جوانب هذا الكشف الجديد، فأدرك أن زَرْع قومه لقدر وافٍ من الحبوب وتخزين محصولها، سيجعل القوم في مأمن من أزمات شح الطعام، فتسلَّح بكل المعارف التي اجتمعت لديه، وقام بعملية زراعة واسعة على مساحات كبيرة قريبة من النهر، مُقسِّمًا تلك المساحات بين رجال القبيلتين، وفرض على كل مزارع تقديم عُشْر محصوله للمخزن، كما نظّم بناء ثلاثة مخازن إضافية لاستيعاب هذه الضرائب الجديدة.

ومع أن هناك أفكار راودت سادر بشأن زراعة أشجار الفاكهة، إلا أن اهتمامه انصب بالكامل على زراعة الحبوب، فقد بدا له أنها أهم من زراعة ما سواها.

وفي صباح أحد الأيام التالية كانت ناشا في الغابة تجمع الثمار، وتوغلت قليلًا في عمق الغابة، فرأت دار هناك يطيل الوقوف بشكل مُريب وكأنه ينتظر أمرًا ما، فتوارت بين الأشجار وراحت تراقب، وإذا بماس ورابون يلتحقان بدار، قبل أن يتوغل ثلاثتهم في عمق الغابة.

أكملت ناشا جني الثمار وعادت إلى المَسْكَن، وسلَّمت غلّتها من الثمار إلى زوجها سادر، وغلّتها من الأخبار إلى ابنها ميراك؛ لإدراكها أن سادر إذا بلغه لقاء دار بماس ورابون، فسوف يُحرق دار بَارًّا بقسمه.

حالما سَمِعَ ميراك من أمه بلقاء دارٍ بماس ورابون، توجَّه إلى شط النهر مُصطحبًا معه ظريف لمرافقته ومساندته، وتربَّصا هناك حيث يمكنهما تَلقُّف دارٍ حال عودته من الضفة الشرقية، وخلال انتظارهما أَطْلَعَ ميراك ظريف على جليّة الأمر، وتوافقا على الضغط على دار، وتهديده بإنهاء خبره إلى سادر إن لم يعمل

لصالح ميراك، وذلك بنقل أخبار رابون وماس إليه، والأهم أخبار أصحاب الأطواف.

وحين عاد دار إلى الجانب الغربي من النهر وجد ميراك وظريف في استقباله، وجابهاه بانكشاف أمر خيانته ولقاءاته بماس ورابون، وأخبراه بأن سادر سَبَق له أن أَقْسَمَ بتَحْرِيقه بالنار إن هو عاد للقاء ماس ورابون، وأنهما لم يُخبرا سادر لكي لا يُحرقه، فراح يدفَع عن نفسه التهمة مستعينًا برغبته الجامحة في الكلام، لكن ميراك أوقفه بهدوء، وقال بأنه سيتوجه إلى والده في الحال لاطلاعه على كل شيء، فطار صواب دار، وجَفَّ ريقه، وضاعت كلماته في بعضها، فوعده ميراك وظريف بعدم كشف خيانته لسادر إن اعترف لهما بكل شيء، فانهار دار وأقرَّ بلقاءاته بماس ورابون، وبما كان ينقله لهما من الأخبار، واسترسل في اعترافاته وفي سرد التفاصيل كعادته، ففاض الكيل بظريف، وقاطعه قائلًا: "يكفي عليك اللعنة، يكفينا ما ذكرت، لا نريد المزيد من قصصك".

فقال دار: "لقد طلبتما مني إخباركم بكل شيء، وأنا لم أكمل بعد كل ما لدي"، فصرخ ظريف في وجهه: "قلتُ لك كفى.. أقفل فمك وافتح أذنيك لتسمع جيدًا ما سيقوله لك ميراك، هل فهمت؟" فأجاب دار: "حسنًا، فهمت".

قال ميراك: "إذا قُمتَ بما سأقولُ لك فلن أخبر والدي بخيانتك، أما إذا خالفت كلامي أدنى مخالفة، فليس أمامي بعدها إلا أن أخبره"، فأجاب دار بخنوع: "سأنفذ كل ما تطلبه، ماذا تريدني أن أفعل وسأقوم به؟"

فقال ميراك: "أريدك أن تستمر في لقاءاتك بماس ورابون.. لا تنظر إلي بدهشة هكذا، نعم استمر في لقاءاتك كما تعوَّدت تمامًا، ولكن لا تنقل لهما أنباء

ذات أهمية، وتحرَّ أخبارهم لتنقلها إليّ، وإياك أن تخالف ما طلبتُ منك قيد شعرة. هل فهمت؟"

-"نعم فهمت، نعم فهمت".

-"وإياك إياك أن تخبرهم بانكشاف أمرك، أو تخالف قولي، إني أحذرك للمرة الأخيرة التي ليس بعدها نذير".

-"حسنًا يا زعيم، لن أخالف قولك، وسأنفذ كل ما تطلبه".

-"إذن فلتبدأ بالعمل من الغد".

أخلص دار في العمل مع ميراك بن سادر؛ لخوفه من بلوغ نبأ خيانته إلى سادر، فكان ينقل لميراك كل ما يسمعه من ماس ورابون، وكان من جملة ما نَقَل عنهما، ما سمعاه من أصحاب الأطواف عن أرضهم وحياتهم هناك، مثل قولهم أن أرضهم محاطة بالمياه من كل اتجاه، وأن بها سهول وغابات، وأنهم عادة لا يعانون فيها من نقص الغذاء، وإن حدث نقص في الثمار وصيد الحيوانات واجهوه بما يصيدونه من أسماك، وأن أرضهم برغم ذلك لا تُداني أرض القبيلتين غنىً وجمالًا.

كما نَقَلَ دار عن ماس ورابون، أن أصحاب الأطواف يقولون أنهم يعبدون صخرة كبيرة في وسط أرضهم، ينبع من تحتها الماء الذي يشربون منه، وأن لهذه الصخرة ما يشبه الحكماء عند القبيلتين، ويسميهم أصحاب الأطواف خُدّام الصخرة، وتقع مساكن خُدَّام الصخرة هؤلاء بجوار صخرتهم المقدسة، ويقع مسكن شادر وزعيم قبيلتهم المتوفي بقرب الصخرة من الجهة الأخرى، وأنهم يحرِّمون الابتعاد كثيرًا في عرض البحر، ويتوارثون التحذير منه، حتى بعد أن تمكنوا من صناعة الأطواف الكبيرة، إلا أن شادر يتمرد على هذا التحريم.

بعد أن سمع ميراك هذه التفاصيل من دار، شكره وشد على يده لمواصلة جهده، والحصول على تفاصيل أكثر عن أصحاب الأطواف، وقائدهم شادر.

مرت بضعة أيام جَمَعَ في غضونها دار معلومات جديدة ثم أقبل بها إلى ميراك بن سادر، وكان أهمها أن مجموعة أصحاب الأطواف الخمسة عشر انقسموا إلى قسمين، ستة منهم ركبوا البحر متوجهين صوب أرضهم الأصلية، متحججين بأن شادر وَعَدَ قبل مغادرته بأنه سيعود قريبًا، وبما أنه لم يَعُد بعد مرور كل هذا الوقت فإن من المؤكد أن هناك ما يمنعه، وأن انتظارهم عودته عبث لا طائل منه، أما التسعة الآخرين فقد ظلوا على حالهم مقيمين على الضفاف الشرقي، وأن منهم ميداع صديق ماس الذي يكون بصحبته أحيانًا حين يلتقي دار في الغابة.

كما أَطْلَعَ دار ميراك على أمرٍ مختلف قدَّر أنه مهم، وهو أن ماس وجد أن وضع قدرًا ضئيلًا من صخور الملح على الطعام يجعله ألذ مذاقًا.

وعندما قام ميراك بتجربة إضافة الملح إلى الطعام، مثل عجين الخبز واللحوم، أبهرته النتائج، فأشاع هذا الاكتشاف في القبيلتين، مُخفيًا هوية صاحبه الحقيقية حفاظًا على سرية عمل دار.

وكانت بحق أيامًا رائعة للقبيلتين، تنافسوا خلالها على صناعة أطايب الطعام، وجني المحاصيل الوفيرة.

واقترح ميراك على والده أن يُسْقِط عن الناس الوجبة التي يقدمونها للمخزن كل خمسة أيام، وأن يكتفي بِعُشْرِ محاصيل الحبوب، التي اتسعت زراعتها وفاضت غلالُها، فَأَعْجَبَ سادر ما سمع من ولده، وقام بدعوة عدد كبير من

رجال القبيلتين إلى اجتماع مسائي حول النار التي يشعلها حُرَّاسُه كل مساء بقرب مسكنه، وأعلن للحاضرين قراره الجديد، فسعدوا به وشكروا لسادر كرمه، وانفض السامر وأجواء السكينة والشعور بالاستقرار والطمأنينة تجتاح أبناء القبيلتين كما لم يحدث من قبل.

الانتقام

وفي صباح اليوم التالي استيقظ سادر على أصوات مرتفعة وجلبة خارج مَسْكَنه، وإذا بناشا تدخل عليه وأمارات الفزع على وجهها، وتقول له بأن في الخارج عدد من رجال القبيلتين جاؤوا لإبلاغه بعودة أصحاب الأطواف وعلى رأسهم قائدهم شادر، فخرج سادر إلى من جاؤوه بالنبأ، وبعد أن توثق منهم عن صحته طلب منهم استنفار رجال القبيلتين للقتال، كما أرسل في طلب أهل المشورة العشرة.

وحين جاء أهل المشورة اجتمع بهم سادر، واستقر رأيهم بعد النقاش على أن يبقوا ملتزمين بالاتفاق الذي عقدوه مع شادر قبل رحيله، إلا إذا بدا من أصحاب الأطواف ما ينقضه.

أما على الضفة الشرقية فقد كانت فرحة رجال مجموعة أصحاب الأطواف التسعة بوصول شادر ومن معه عارمة، وعلى النقيض كان شعور ماس ورابون، فقد رجَّتهما بشدة عودة شادر، لتوجِّسهم من بطشه إذا وجد أنه لم يعد بحاجتهما، لاسيما أنهما لاحظا أن حالة الخَوَر والانكسار التي كانت تغشى أصحاب الأطواف عند رحيلهم قد تبدلت، وبدوا بعد قضاء كل هذه المدة في أرضهم أقوى وأثبت قلوبًا.

وأخذ أصحاب الأطواف القادمون مع شادر يتبادلون الأحاديث المشوِّقة مع رفاقهم الذين لبثوا قرابة العامين ينتظرون عودتهم، بينما انتحى شادر بماس إلى طرف الغابة، وقال له: "لقد سبق أن قلت لي أن سادر خدعكم وانتزع القيادة لنفسه، وأريدك أن تحدثني عنه؟" فارتبك ماس ولم يعرف ما الذي سيُرضي شادر سماعه عن سادر، فقال: "اسمه سادر.. ولكنك أفضل قائد".

فضحك شادر وقال: "دعك مني وأخبرني عن سادر"، أزاحت ضحكة شادر بعضًا من أوجال ماس، وقال باقتضاب حذر: "لقد جاء أيها القائد مع قبيلته من أرض بعيدة عند أعالي النهر، وقاسمناه هذه الأرض، فتمكَّن بعد ذلك من خداعنا حتى جعلناه قائدنا"، ولم يبدُ على شادر الاهتمام بما سمع، وقال: "لقد سمعت هذا الكلام منكما أنت ورابون من قبل، فدعنا منه وأخبرني عن فتاة من قبيلة سادر اسمها ناشا، ما هي أحوالها؟" فأصبح جليًا لماس أن هذا هو ما يريد شادر معرفته منه، فأجاب: "تعني ناشا زوجة سادر؟.. لا أعرف أحدًا غيرها بهذا الاسم، ولكنها لم تعد فتاة، ولديها ولد من سادر اسمه ميراك، وهو شاب طيب القلب يحب الجميع ويدعو إلى محبة الجميع".

فقطب شادر وجهه، وعادت لعينيه نظراتها المريعة، وصفع ماس صفعة أطاحت به على قفاه، وقال: "اغرب عني أيها الحقير.. هيا"، وقف ماس وابتعد مسرعًا يتخبط في خطاه وهو يقول: "ليباركك الإله أيها القائد".

وبعد أن مضت بضع ساعات على وصول أصحاب الأطواف أخذوا بالتفرق ودخول الغابة للحصول على الطعام، وكان شادر يتحدث مع أحد رجال المجموعة التي بقيت على الضفة الشرقية، ويسأله عن ما كان يحدث خلال مدة انتظارهم عودته، فأخذ الرجل يروي لشادر عن أمور شتّى، وطَوَّف حتى وصل إلى الحديث عن أصول شادرٍ وانتمائه إلى قوم سادر، وقال بأن ماس هو من تبنى هذا الاستنتاج، وأن رابون الذي كان قائد المجموعة لم ينكر عليه ذلك، ولم يذكر الرجل أن ميداع كان مشاركًا في ذلك الحديث، ليجنبه حنق شادر المُتوقع، لأنه خمَّن أن شادر ربما غَضِبَ ممن كَشَف شيئًا من الواضح أنه يتعمد إخفاءه، فكان ما توقعه الرجل، فقد اكفهر وجه شادر وتلظَّى غَضَبًا؛ ذلك أنه وإن كان قد قَصَّ فيما مضى على أصحاب الأطواف قِصَّتَه، إلا أنهم لا

يعلمون أن هؤلاء الذين يريدهم الآن أن يقاتلوهم هم مجموعته الأصلية، وكان يتخوف من أنهم إذا علموا بذلك، ربما فكروا أن دافعه للقتال مجرد رغبة في الانتقام، ولذلك كان حنقه شديدًا على ماس ورابون.

وحين التقى أصحاب الأطواف من جديد عند ضفة النهر حيث يجلس قائدهم شادر، كان ماس ورابون يتحدثان بقرب الغابة، فلمَّا لم يرهما شادر بين الحضور أرسل في طلبهما، وحالما حضرا أمرهما ببرود أن يتقاتلا حتى موت أحدهما، فلم يستوعبا ماذا يعني بالضبط، فقال لهما بأن عليهما أن يتقاتلا حتى يقتل أحدهما الآخر، مهددًا بقتلهما في الحال إن لم يستجيبا، وأخبر شادر رفاقه بلسانهم ماذا طلب من الرجلان، فَذُهِلُوا وتلفتوا في بعضهم بعض، ومع ذلك كان جُلُّهم متحمسون لرؤية نزال موت بين غريبين.

حاول ماس ورابون استفسار شادر عن سبب غضبته عليهما، فقال: "لا شأن لكما بغضبي، وكفى بخيانتكما لرفاقكما سببًا للعقاب." ثم نهرهما بقوة وهو يهز هراوته في يده قائلًا: "إذا نطقتما بكلمة أخرى ولم تبدأا بتنفيذ ما أمرتكما به، فسأقتلكما في الحال.. هيَّا." حار الرجلان في أمرهما، ولم يَعُد فرارهما الآن ممكنًا وهما وسط هذا العدد من الرجال، فأُسقط في يدهما، وتبادلا النظر دون أن يتحركا، فهب شادر واقفًا وهَمَّ بالفتك بهما، فقال رابون: "انتظر أيها القائد، ها أنا ذا أنفذ أوامرك"، وقفز نحو ماس وضربه على وجهه واشتبك معه في العراك.

كان رابون يصغر ماس بنحو عشر سنين، ويفوقه قوة، لذلك بدا له أنه إلى النصر أقرب في هذا النزال، ولذات السبب كان ماس أكثر ترددًا في قبول هذه المواجهة.

وما أن بدأ الرجلان بالعراك وتبادل الضربات حتى استيقظت أحقاد رابون في صدره، وتذكَّر أن ماس أيَّد من نادوا بخلعه وتنصيب سادر قائدًا لهم مكانه، وشعر أن هذا أوان شفاء صدره من ماس.

وبينما كان الرجلان يتعاركان قال لهما شادر: "سنعطيكما هراوتين لمساعدتكما على إنهاء هذا القتال"، فقال ماس: "لا داعي لذلك أيها القائد"، فضحك شادر من أعماقه، وأخبر قومه بفحوى مقالة ماس، فضجوا بالضحك حتى سمعهم من كان من رجال القبيلتين على الشط المُقابل.

انتهز رابون ما بدا له أنها فرصته وقال: "حسنًا أيها القائد، أعطونا الهراوات"، فأمر شادر بإعطائهما هراوتين خشبيتين متماثلتين، مُفسرًا ضرورة التماثل بأنه من أجل العدالة، فقذف رجاله بهراوتين لماس ورابون، والتقط كل منهما واحدة.

أخذ رابون بتحمس وغيظ يوجه ضربات قوية ومتلاحقة بهراوته إلى رأس ماس، ولكن ماس نجح في تحاشيها، وقال ماس بصوت خفيض مُعَلِّقًا على حماسة رابون: "كأنك ترغب حقًا بقتلي يا رابون"، فأجابه رابون بصوت مرتفع: "نعم أرغب بقتلك أيها الوغد، لتذوق عاقبة الخيانة.. أين سادر الذي خنتني من أجله ليخلصك مني"، فرد ماس بنبرة توسل: "منذ قليل كنت تحدثني عند الغابة كصديق"، فنهرهما شادر قائلًا: "دعا الجدال وواصلا القتال".

عندها أدرك ماس أن لا منجى له الآن من القتل إلا أن يكون هو القاتل، فاستجمع طاقته وكل ما أبقت له السنين من قوة عزم، وراح يصاول رابون كما يصاوله، ورفع بمكرٍ هراوته موهمًا رابون بأنه سيهوي بها على رأسه، فتراجع رابون قليلًا ورفع هراوته ليتقي الضربة بها، فأسرع ماس بضرب إحدى رِجْلَي رابون، فصرخ رابون من شدة الألم، لكنه مع ذلك ظل واقفًا يقاتل.

وكرر ماس ذات الخدعة وبالطريقة نفسها، لكن عندما وجَّه ضربته لِرِجْل رابون وبقوة أكبر هذه المرة، نجح رابون في تحاشى الضربة، فاختل توازن ماس بعد أن أخطأت ضربته القوية هدفها، ووقع أرضًا، فانتهز رابون الفرصة وضرب يد ماس الممدودة على الأرض فكسرها، فأفلتت قبضة ماس هراوته، عندها قال رابون بنشوة: "لا يكرر ذات الخدعة إلا الحمقى أمثالك أيها الوغد".

جلس ماس بسرعة متحاملًا على آلامه، ومد يده السليمة لالتقاط هراوته، فعاجله رابون بضربة مسدَّدَة إلى رأسه، فخر على الأرض بلا حراك وهو يلفظ نفسه الأخير.

هتف أصحاب الأطواف لرابون بتلقائية باستثناء اثنين، قائدهم شادر، وميداع صديق ماس.

ووقف رابون بزهوٍ وهو يقابل هتاف أصحاب الأطواف له بابتسامة المنتصر، واضعًا إحدى قدميه على صدر الجثة الخامدة.

وتقدم شادر نحو رابون على مهل وفي يده هراوته، وعيناه تقدحان غيظا، فانحسرت ابتسامة رابون وقال: "لقد نفذت أوامرك أيها القائد." فبادره شادر بضربة خاطفة وشديدة بالهراوة على رأسه، فسقط فوق جثة ماس جثة أخرى. ولوهلة ساد الصمت، ثم عاد أصحاب الأطواف إلى الهتاف من جديد، ولكن الهتاف كان باسم شادر هذه المرة، واستمر الهتاف وعلا بينما كانت الجثتان متقاطعتان على الأرض.

كان شادر يعلم أن الحديث عن انتمائه إلى قوم سادر قد سرى بين رجاله، فقال مستغلًا أجواء الحماسة: "أريدكم جميعًا أن تعلموا بأني أبذل الوُسّع لكي تعيشون حياة هانئة، وليس هناك من ضامنٍ لتلك الحياة إلا أن تَخْلُص لكم هذه

الأرض غير منقوصة، أما إذا ظل هؤلاء يشاركوننا فيها، فإياكم والتوهم أن اتفاقنا معهم سيردّهم عن الانقضاض علينا حين تناديهم الفرصة، ولهذا فإن من اللازم أن نفنيهم عن آخرهم، لنحوز هذه الجنان لنا، وأطمئنكم بأننا قادرون على ذلك".

كان ميداع صديق ماس غير راض عن نهاية صديقه، وبهذه الطريقة المستهترة، كما أنه لم يكن مقتنعًا بقتال القبيلتين بعد ما رأى من وفائهم أثناء غياب شادر، فأخذ يتحدث مع بعض رفاقه من أصحاب الأطواف علّه يجد حلًا.

أما على الضفة الأخرى فقد كان رجال القبيلتين في حالة استنفار قصوى، ويترقّبون بحذر أن تتكشَّف لهم نوايا أصحاب الأطواف، ويتبين لهم هل يعتزمون التمسك بالاتفاق أم لا.

وعرف المرابطون منهم عند الشط مصرع ماس ورابون، وشاهدا إلقاء جثتيهما في النهر، وبلغ النبأ سادر وهو يجتمع بأهل المشورة العشرة خارج مسكنه، فكانت ردة فعله أن قال: "لقد لقي الشقيان وبال الغدر والخيانة، غير أن ما نالهما من الغرباء غير مطمئن لنا، ويلزم أن نبقى جميعًا على أُهْبَة القتال حتى نتأكد مما هم عازمون عليه."

ولم يتركهم شادر للتخمينات طويلًا، فقد بلغ سادر وأهل المشورة لا يزالون عنده، أن شادر نادى المرابطين عند الشط وقال: "أبلغوا سادر أن اتفاقنا معكم قد انتهى، وأن عليكم أن تتخلوا لنا عن كل هذه الأرض، وترحلوا إلى ما وراء الشلال، وإلا فلن نبقي منكم صغيرًا ولا كبيرًا"، وكان شادر يهدف بطلبه التعجيزي هذا إلى أن يُرفض طلبه، ليكون الرفض حجته أمام أصحاب الأطواف لقتال القبيلتين.

وأجمع سادر وأهل المشورة العشرة على ضرورة التمسك بالأرض، والقتال دفاعًا عنها حتى آخر رمق.

كان ميراك يحضر الاجتماع، فظل ينتظر انفضاض مُلتقاهم بنفاد صبر ليخلوا بأبيه، فلمّا تفرق القوم اقترب من أبيه وقال: "هل تستطيع يا أبي أن تمنع حدوث هذا القتال الذي تستعدون له؟ أعني أن شادر من قبيلتنا، فما الذي يمنعكما أن تصلا إلى حل يرضي الجانبين؟" أجاب سادر بحدة: "أنت لا تعرف شادر، أنا على يقين من أنه يريد الانتقام منا بعد ما فعله جدُّك به، مع أنه يستحق ما حدث له، وكان يجب عليه عوضًا عن سعيه للانتقام أن يكون سعيدًا بنجاته، وأن يتذكر أن والدي هو من حماه وقدم له العون صغيرًا، أما إلقاءه في النهر فكان بسبب ما جَرَّهُ هو على نفسه".

فقال ميراك: "لقد أخبرتنا بقصة شادر من قبل، وأنه نشأ يتيمًا بعد وفاة أبيه قبل ولادته، ووفاة أمه بعد ولادته بعام، لكن هذه أول مرة أسمع أن جدي حماه وساعده".

-"بعد وفاة أم شادر طلب والدي من بعض الأسر أن تتناوب العناية بشادر، لكي يخف عليهم عبء العناية به، وبعد ذلك كان شادر في طفولته عرضة لأذى الكثيرين ممن يكبرونه سنًا، لأنه كان وحيدًا، فكان أبي يحرص على حمايته، ولكن عندما أخذ شادر يكبر ويشتد زنده، لم يعد بحاجة حماية من أحد، بل بات الجميع يطلبون الحماية منه ومن شروره، وأصبح مبعث قلق لكل المجموعة، وازداد أذاه حتى لم يعد أبناء المجموعة يذوقون للاطمئنان طعمًا، حتى تم التخلص منه".

- "وماذا صَنَعَت والدتي بعد أن قتل شادر والديها؟"

-"أصبحت ناشا وحيدة بعد مقتل والديها، فقامت أمي بضمها إلى أسرتنا كما لو كانت ابنتها، وظلت ناشا في كنف أمي حتى توفيت، بعد ذلك طلب والدي مني ومن ناشا أن نتزوج.. كان ذلك قبل وفاة والدي بسنوات قلائل".

-"إن شادر هذا قد تسبب لوالدتي بأذى كبير".

-"هذا صحيح"

- "ولكن تقاتل البشر يُظهر أبشع ما فيهم، وأبشع ما في الحياة كلها، ولذلك أرجوك يا أبي أن تفكر بشيء يجنب الجميع القتال".

فأجاب سادر ابنه بهدوء هذه المرة: "يا بني، إنك تملك قلبًا واسعًا يكفي لاحتواء كل الناس، وتملك قدرًا كبيرًا من الفطنة وحسن الرأي، وليس لدي شك في قوتك وشجاعتك، لكن حين يكون علينا أن نواجه الشر، يجب أن نفعل ذلك بكل قوة، ومع هذا أعدك بأن أسعى جهدي لتجنب القتال، مع إدراكي بأن شادر لن يجدي معه شيء إلا القتال".

كان شادر قبل عودته من جزيرة أصحاب الأطواف قد تلبَّث هناك طويلًا حتى انقشعت آثار فزع رجاله مما جرى أثناء حملتهم السابقة، وتغيرت - بمرور الوقت وتدبيره - رؤيتهم وتفسيراتهم لما تعرضوا له، فقد كانوا على قناعة بأن ما جرى لهم عقاب من صخرتهم المقدسة، لمخالفتهم بعض تعاليمها التي لطالما رددها خُدّامها، والقاضية بحرمة الابتعاد في البحر والوصول إلى أماكن لا ترى منها اليابسة، ولذلك كان تصورهم أن أول إنذار تلقوه من الصخرة بعد مخالفتهم تعاليمها، هي خسارتهم في مواجهتهم الأولى مع القبيلتين، تلك المواجهة التي جُرح خلالها شادر على يد ميراك، وكان تصورهم أيضًا أنهم لمّا لم يرتدعوا بعد الإنذار الأول، عاقبتهم الصخرة في المرة الثانية بأن خرج عليهم سخطها من تحت ماء البحر.

فكانت خطة شادر بعيدة المدى وصبورة، تقوم على استرضاء خُدَّام الصخرة ليقبلوا بمساعدته، وذلك بأن يقولوا لقومهم أن ما تعرضوا له كان حقًا عقابًا من الصخرة المقدسة، لكن ليس لإبحارهم البعيد، بل لإهمالهم عبادتها، وأن كل ما عليهم فعله لترضى الصخرة عنهم، هو المزيد من التعبُّد والتَّقْدِمَات لها.

وتقضي الخطة أن يقول لهم خدام الصخرة بعد ذلك أن الصخرة رضيت عنهم، وأنها سمحت لهم بالخروج إلى ما وراء البحر، وأنها ستمنحهم تأييدها هذه المرة، عوضًا عن تسليط سخطها عليهم كما حدث في المرة السابقة.

واستغرق إنجاز هذا التدبير من شادر قرابة العامين، واقتنع رجاله بالإبحار مرة أخرى نحو الأرض الغنية، حيث يتلاقى تيار النهر مع أمواج البحر.

على الضفة الغربية كان ميراك يحاول إقناع والده وأهل المشورة العشرة وأعيان القبيلتين بالقبول بمغادرة الأرض، وتركها لأصحاب الأطواف، مؤكدًا لهم أنه على يقين تام بأن أصحاب الأطواف سيعودون لاحقًا إلى أرضهم الأصلية؛ يشدهم إليها ارتباطهم بصخرتهم المقدسة، شارحًا لهم أطرافًا من التفاصيل التي وصلته عَبْرَ دار، دون أن يفصح عن اسمه.

وبعد جهود نَشِطَة ومتواصلة ومضنية قبلوا فكرة مغادرة الأرض، شريطة أن تكون مغادرتهم مؤقتة، بحيث يقيمون متربصين بقرب الشلال حتى يركب أصحاب الأطواف البحر عائدين إلى أرضهم، فإن طال مُقامهم دون أن يعود أصحاب الأطواف إلى أرضهم كما يتوقع ميراك، حينها يكون على القبيلتين العودة لقتالهم، وإجلائهم بالقوة.

بعد ذلك طلب سادر من رفيقه هميان أن يتوجَّه إلى الشط، ليُبلغ قائد أصحاب الأطواف بموافقة القبيلتين على التخلي عن الأرض، فمضى هميان لهذا

الشأن، لكنه لم يلبث أن عاد ليقول لسادر ومن معه بأنهم قد فاتهم أن الجو العاصف سيمنع شادر من سماعه أو على الأقل من فهمه من الضفة الأخرى.

وكان الخيار البديل أن يعبر أحدهم النهر ليبلغ شادر الرسالة وجهًا لوجه، ولأن سادر كان يدرك مدى الخطر الذي يَلُف القيام بمثل هذه المهمة، فقد اختار دار للقيام بها؛ وذلك لانقباض صدره منه بعد تَكَرُّر أخطائه وبثِّه لما يثير البلبلة، ولم يقبل دار القيام بهذه المهمة إلا بعد أن قهره سادر على القبول قهرًا، وشيَّعه مع رجال القبيلتين إلى الشط، فعبر دار النهر تحت أنظارهم، وتلقَّاه اثنان من أصحاب الأطواف، واقتاداه إلى حيث يجلس شادر وجمع كبير من رجاله عند طرف الغابة، فتكلم دار أمام شادر باقتضاب وصوت راجف، وقال بأن القبيلتان توافقان على المغادرة وترك الأرض.

فصُدِمَ شادر بهذه الموافقة التي لم تكن بين توقعاته، وراح يفكر كيف يخلق ذريعة جديدة للخلاف والقتال، وخَطَر له تحريف الرسالة التي حملها دار، لكنه أحجم لمّا تذكَّر حضور رجال المجموعة الذين لم يعودوا معه إلى أرضهم قبل قرابة عامين، لأن بعضهم تعلَّم من ماس ورابون شيئًا من لغة القبيلتين خلال مكوثهم معًا طوال تلك المُدة.

فقال لدار: "هناك طلب آخر لي"، والتفت إلى قومه وقال بلغتهم: "لقد علمتُ مؤخرًا أن هؤلاء الأوغاد بعد أن أقدموا على رميي من مرتفع الشلال، أخذوا محبوبتي وسلموها للحقير سادر، ولذلك يتوجب عليهم أن يعيدوا لي محبوبتي قبل أن يغادروا"، وأعاد بصره نحو دار وقال بلغته الأم وبحدة: "هيا اذهب وقل لسادر بأن يسلم لي ناشا قبل مغادرتهم، وإلا فسنفنيهم عن آخرهم".

لم يكد دار يصدق بأنه قد سُمِحَ له بالعودة سالمًا، فاتجه مسرعًا نحو النهر وقطعه عائدًا نحو الجانب الغربي، حيث كان سادر ورجال القبيلتين ينتظرونه على بعد رمية حجر من ضفاف النهر.

خرج دار من الماء واتجَّه إلى حيث يجلس سادر، ووقف أمامه وقال: "يقول شادر بأن لديه طلب آخر"، قال سادر مُستنكرًا وبضيق: "طلب آخر! ألا يكفيه تركنا الأرض له؟! وما هو هذا الطلب؟" فحار دار لإدراكه فداحة الطلب الذي يحمله، بعد أن كانت فرحة النجاة قد أنسته كل ما سواها، فقال بتردد: "إنه يقول يا زعيم.. يقول يا زعيم بأنه.. يريدك أن تعطيه.."

-"أعطيه ماذا؟"

-"تعطيه ناشا".

نهض سادر كالأسد الغاضب، فاستدار دار وأسرع بالفرار نحو النهر، وحاول سادر ومعه بومبا وظريف اللحاق به، لكنه قفز في الماء وبدأ بالسباحة وسادر يقول: "لا تهرب أيها الحقير".

وقال ظريف مناديًا: "عُد يا دار.. تعال إلى هنا.. ما بك يا رجل؟ أريد أن أقول لك شيئًا".

وجد دار نفسه في وسط النهر بين فكي الهلاك، فالطرفان على الضفتين الآن خطر مميت بالنسبة له، فأخذ يساير تيار النهر ليبتعد عن الطرفين المتواجهين، ليميل بعد ذلك إلى إحدى الضفتين ويسرع بالفرار، ولكن سادر ومعه آخرون لمّا رأوا مناورة دار، راحوا يسايرون خط سباحته مشيًا على الشط، وفعل عدد من أصحاب الأطواف ذات الأمر على الضفة الأخرى، فأُسقط في يد دار وقد اجتمع عليه إجهاد السباحة والهلع، وأصبح عليه أن يقرر إلى أي الضفتين يميل، فنظر إلى الضفاف الغربي وإذا سادر الغاضب يقف في انتظاره، ولم يكن

غائبًا عن ذهن دار أن سادر كان ينتظر منه أدنى الأخطاء ليفتك به، ولم ينس أن قَسَمَ سادر بأن يحرقه بالنار إن عاد للقاء ماس ورابون أبلغ شاهد على تراكم غضب سادر عليه، وعلى نوع العقاب الذي ينتظره إن عاد إلى سادر، فحوّل دار بصره إلى الضفاف الشرقي، فإذا ميداع صديق الراحل ماس يلوِّح له، ويطلب منه القدوم إليه، وقد كانت بينهما معرفة منذ كان يجده بعض الأوقات مع ماس في الغابة، فاختار التوجه إلى الضفة الشرقية.

خرج دار من الماء وفي انتظاره ميداع وعدد من أصحاب الأطواف، وأخذوه إلى شادر، فتلقاه شادر مبتسمًا وقال: "من الواضح أنهم رفضوا التصالح معنا، لقد رأيناك وأنت تفر أمامهم." وضحك شادر من أعماقه ضحكة مدوية، ثم قال: "لا بد أن طلبي أفزع سادر، ولكن لا عليك، فقد أخبرني ميداع أنك كنت تساعدهم أثناء غيابنا وتمدهم بأخبار القبيلتين، فقلت له بأن يدعوك إلى القدوم إلينا"، قال دار بصوت مهزوز: "أرجوك أن تقبلني كأحد رجالك أيها القائد".

فتدخل ميداع وقال بلغة القبيلتين: "لقد تعلمت كلام القبيلتين من ماس ورابون كما تعلم أيها القائد، ولقد فهمت ما قاله دار، وهو كما قلت كان يمدنا بأخبار القبيلتين"، فالتفت شادر إلى دار وقال: "إذن مرحبًا بك يا دار، واحرص على أن تكون مطيعًا ومفيدًا"، فرد دار بخنوع: "أنا طوع أمرك أيها القائد"، ثم أردف وهو يَغُصُّ بِرِيقِه: "أريد أن أخبرك أيها القائد بأنهم حين قالوا بأنهم يقبلون مغادرة الأرض والتخلي عنها لكم كانوا يكذبون، فقد أجمعوا أمرهم على المغادرة لوقت قصير فقط، ثم يعودون بعد ذلك لقتالكم إن بقيتم هنا، لأنهم يرجِّحون أن عودتكم إلى أرضكم التي جئتم منها لن تتأخر".

وما أن أتم دار ما ألقاه على مسامع شادر وميداع حتى هب شادر واقفًا، كمن لاحت له الفرصة بعد طول انتظار أو انقطاع رجاء، وتقدم إلى حيث جلس

حشد أصحاب الأطواف، ولم يتوقف إلا في وسط الحشد، ثم قال: "أيها الرجال، لقد أخبرنا هذا الرجل الذي جاءنا الآن هاربًا من الأشرار، أنهم حين وافقوا على المغادرة وترك الأرض لنا، لم يكن ذلك إلا غدرًا وحيلة، ليعودوا بعدها للانقضاض علينا.

أعلم أن بعضكم ربما حدَّث نفسه قبل ذلك قائلًا: "لماذا نقاتل القبيلتين على شيء مثل تسليم محبوبة شادر وقد قبلوا بالتخلي لنا عن كامل هذه الأرض؟" ولكن ها قد تبين لكم إضمارهم الغدر والمداورة، وعليكم أيها الرجال الشجعان أن تستعدوا لعبور النهر، وقتال هؤلاء الأشرار، وأخذ هذه الأرض التي ستكون لكم.. ولكم وحدكم".

لم يرَ شادر أي تفاعل مع خطابه، فقال: "من شاء منكم التثبُّت مما قلتُ لكم بشأن توافق القبيلتين على إيهامنا بمغادرتهم الأرض ثم الغدر بنا، فها هو ذا الرجل أمامكم، أعلم بأنكم لا تفقهون منطقه، ولكن اسألوا ميداع فهو يعي كلامهم، وقد سمع كل ما قاله الرجل لي".

في ذات الوقت على الضفة الأخرى كان سادر يخطب في رجاله ويقول: "يا رجال القبيلتين، تعلمون أننا أبلغنا أصحاب الأطواف بقبولنا التخلي لهم عن أرضنا، بعد أن اتفقنا فيما بيننا على العودة إليها في وقت لاحق، ولكن ما لا تعلمونه أن قبولي ذاك لم يكن إلا لأُبيِّن لكم أن مبتغاهم هلاككم وليس الحصول على الأرض، والحَقّ أني لم أكن لأترك هذه الأرض وأتخلى عنها لهؤلاء الغرباء، فكيف نترك أرضنا التي عليها نَبَتْنا ومساكننا ونذهب للتجول والتنقل بحثًا عن الطعام؟!

يا رجال القبيلتين، لقد بقينا عامين متقيدين باتفاقنا مع أصحاب الأطواف على اقتسام الأرض، فجاؤوا الآن يطلبون كل أرضنا، ولمّا أظهرنا قبولنا

بطلبهم، تكشَّفَ لنا ما أخفوه من نواياهم، فإذا هم ما يريدون إلا فناءكم، ولن يتوقفوا حتىٰ ينتزعوا منكم نساءكم، ويقتلوا أطفالكم، ويفنوكم عن آخركم، إلا أن تردوهم أنتم عن ذلك، فاستعدوا لقتال شديد تدافعون به عن أرضكم وأنفسكم، وتمنعون به نساءكم وأطفالكم".

وعلىٰ الضفاف الشرقي بعد أن أكمل شادر خطابه بين أصحاب الأطواف، وذَكَر ميداع كشاهد علىٰ ما نقله دار بشأن نوايا القبيلتين، التقط ميداع زمام الحديث، وقال: "أيها القائد، نحن ندين لك بالولاء، وقد رأيت كيف بقينا هنا عامين حين طلبت منا البقاء، ألم يكن ذلك طاعة لك؟ فأجاب شادر: "بلىٰ، وأنا ممتن لكم غاية الامتنان".

-"إذن دعني أصارحك بما لدي ولدىٰ كل هؤلاء الرجال".

-"قل كل ما تريد قوله يا ميداع".

-"إن ما ذكرتَه أيها القائد صحيح، لقد قال الرجل بأن موافقة القبيلتين علىٰ مغادرة الأرض ليست حقيقية، وأنهم ينوون مغادرة الأرض ثم العودة لقتالنا إن لم نعد إلىٰ أرضنا، ولكننا أيها القائد من ندفعهم دفعًا إلىٰ قتالنا؛ وذلك بطلبنا منهم النزول لنا عن كامل أرضهم. ودعني أخبرك أيها القائد بأننا طوال العامين الذَين أقمنا خلالهما هنا، لم نرَ من القبيلتين ما يدل علىٰ أنهم لا يرغبون ببقائنا علىٰ هذه الأرض، وظلوا ملتزمين بالاتفاق الذي صنعتَه أنت بيننا وبينهم قبل عامين، ولم تَبْدُر منهم بادرة سوء، وكان دار- هذا الرجل الذي انحاز إلينا الآن - يأتينا بأخبارهم كلها، ولم نسمع منه قط أن هناك من يريد الغدر بنا أو مضايقتنا، مع أننا كنا قلة، فلماذا نقاتلهم الآن من أجل أرض تكفينا وتكفيهم معًا، وهم لا يمانعون اقتسامها معنا؟!"

واسترسل ميداع قائلًا: "ولا أخفيك أيها القائد أننا لاحظنا أن ثأرك القديم معهم هو أكثر ما يُحَرِّكك ضدهم، ونحن لا نطلب منك أن تترك ثأرك إن كنت مُصِر على الانتقام، بل نرى أن لك الحق في اختيار من تريد قتاله منهم، ولتتواجها رجلًا لرجل، ويبقى اقتسام الأرض بيننا وبينهم على حاله، فَنَصْرِف الموت عن كل هؤلاء الرجال من الجانبين.. وهذا ليس رأيي لوحدي، بل الجميع يرون ذلك، ولا تظن أن هذا تخليًّا عنك؛ فنحن نثق في قوتك، ونعرف أنك ستغلب من يواجهك، وتأخذ ثأرك منه. أما مجيء كل هؤلاء الرجال معك من أرضنا، فما كان من أجل القتال، بل لأن خُدَّام الصخرة دفعوهم إلى المجيء معك، وقالوا لهم بأنهم سيذهبون إلى الأرض الغنية بتأييد الصخرة المقدسة وفي حمايتها، ولم يقولوا لهم بأن هناك قتال".

أدار شادر بصره بين وجوه القوم يستطلع مدى اعتراضهم على كلام ميداع، أو تأييدهم له، فإذا هم معتصمون بالصمت، وكلما نظر في وجه أحدهم أشاح ببصره عنه، فقال: "يبدو أنكم قد تواطأتم على ما قاله ميداع".

فقال ميداع: "ليس تواطئًا أيها القائد، لقد تحدثتُ مع البعض منهم، وهم بدورهم حدثوا غيرهم، وَرَأَيْنَا ألا نعترض أخذك لثأرك بنفسك، كما أننا نثق في قدرتك على القيام بذلك".

وأطبق الصمت على المكان من جديد، فَقَلَّبَ شادر بصره بين القوم مرة أخرى، ثم قال: "لقد جئنا إلى هذه الأرض في المرة السابقة قبل عامين، وعصيتموني حينها ودفعتمونا إلى العودة إلى أرضنا، وها أنتم هؤلاء تقعدون عن قتال أولئك الأشرار مرة أخرى، وأنا لا أعني من بقوا هنا لمدة عامين، فأنا أقدّر لهم ما فعلوا، فاسمعوني جيدًا أيها الرجال.. طالما وأنتم ترون أن أقاتل من أريد قتاله من الأشرار رجلًا لرجل، إذن فاعلموا أن هذا يوافق هواي ومبتغاي

وشفاء صدري، وليتكم تدركون كم أتشوق لمواجهة سادر.. ولكن هل يقبل هو بمواجهتي؟"

قال ميداع: "سنرسل له من يكلمه ويأتينا برده"، فقال شادر مبتسمًا: "حسنًا، أتمنى أن لا يخذلكم سادر ويجبُن عن مواجهتي"، وعاد شادر إلى المكان الذي كان يجلس فيه قبل قليل، وجلس هناك وكأنه ينتظر ما يفعله أصحابه.

فتشاور أصحاب الأطواف ورأوا أن يرسلوا دار إلى سادر بطلب المنازلة بينه وبين شادر، فحاول دار التَمَلُّص من المهمة التي بدت له قفزًا في الهلاك، وطَرَحَ حُجَجه على ميداع، فقدمها ميداع بدوره إلى قومه، لكنهم لم يقبلوا من دار معاذيره؛ لرغبتهم الجارفة في اجتناب القتال، وراح دار يصرخ وهم يسوقونه إلى ضفاف النهر، ثم تنبه دار إلى أن الأجواء قد سكنت، فصاح بميداع: "لقد سكن الهواء يا ميداع، وأستطيع أن أقول لسادر من الضفاف كل ما يريدون.. قل لهم ذلك أرجوك"، فأوضح ميداع للقوم أن دار قد يستطيع القيام بالمهمة كاملة دون الحاجة لعبور النهر، وطلب منهم أن يتوقفوا مكانهم، ويتركوا دار يتقدم إلى حافة النهر، ويبلغ رسالته بهدوء ووضوح.

وأخذ دار ينادي سادر من شط النهر الشرقي، فسمعه سادر وهو بين قومه الذين كانوا يقفون على بعد خطوات من الشط الغربي، وتقدم سادر نحو النهر، فصاح دار مجتهدًا في رفع صوته ما وَسِعَهُ ذلك، قائلًا: "إنهم يطلبونك أنت يا سادر"، سمع سادر مقالة دار ولم يعلق، فقال دار بصوت سمعه بوضوح شديد كل رجال القبيلتين على الضفة المقابلة: "لقد طلبوا مني أن أبلغك أن شادر يطلب قتالك رجلًا لرجلٍ حتى الموت، ويبقى اتفاق تقسيم الأرض قائمًا أيًا كانت نتيجة قتالكما، فيتجنب الطرفان القتال".

فوجئ سادر بعرض أصحاب الأطواف، لكنه لم يجد إلا أن يقول وسط اندهاش قومه مما يسمعون: "أبلغهم بموافقتي".

على الرغم من دهشة أفراد القبيلتين من التطور الجاري، إلا أنهم كانوا بشكلٍ ما راضين في دواخل أنفسهم عن إمكانية تجنّب القتال، ما عدا ميراك ووالدته التي كانت لا تفارق زوجها منذ مجيء شادر.

اقترب ميراك من أبيه الواقف عند حافة النهر وقال: "ما الذي تقوله يا أبي؟ لن أدعك تواجه شادر هذا، إنه شديد القوة، لقد رأيتُه كيف يقاتل عندما هاجمونا أول مرة، لقد كان يعصف بالرجال عصفًا".

قال سادر: "ألم تكن تريد منع اقتتال الطرفين؟ ها قد نلت مرادك." فقال ميراك بانفعال: "ولكني لم أكن أريد أن تكونَ.."

فقاطع سادر ابنه قائلًا: "لا تظن أني أجهل قوة شادر وجسارته، فقد عرفته قبل أن تعرفه، ولكن لم يكن لأبيك أن يَجْبُنَ حين دُعِيَ للقتال، وهو سادر زعيم القبيلتين"، وعاد سادر إلى حيث يقف رجال القبيلتين.

أما على الضفة الشرقية فقد استقبل أصحاب الأطواف قبول سادر منازلة شادر بفرح لم يخفوه.

وتقدم شادر نحو النهر وأخذ ينادي سادر بصوته الجهوري، فاقترب سادر من حافة النهر ليستمع.

قال شادر: "هل أعبر إليك أم تعبر إلي؟"

فأجابه سادر: "اعبر أنت إلى هنا"، ثم صمت قليلًا وأضاف: "أعدك بألا نغدرك، وأن أقاتلك منفردًا"، فدخل شادر في النهر وبدأ بالسباحة بلا وجل، ورغبة الانتقام تحدوه مشتعلة في صدره وهو يقول لنفسه: "ها قد اقترب الوقت".

وصل شادر وخرج من الماء على الضفاف الغربي، فقال سادر لرجاله وهم يقفون على مرمى حجرٍ من النهر: "تراجعوا قليلًا ليكون مكان القتال حيث تقفون"، فتراجعوا كما طلب قائدهم، وتقدم الرجلان إلى المكان، ووقفا متواجهين، تفصلهما عن بعضهما بضع خطوات.

التفت سادر نحو قومه وقال: "لا يتدخل أي منكم في هذا القتال، لقد أعطيتُ وعدي بذلك، ولتتراجعوا أكثر ليكون لدينا مكان أوسع للقتال، ولكي يتمكن أصحاب الأطواف من مشاهدة ما يجري بوضوح من مكانهم هناك على الضفة الأخرى، فيعلمون وفاءنا بالوعد، ويتأكدون من أننا لم نغدر".

ثم أضاف متوجهًا إلى رفيقه هميان: "ناول هراوتك لشادر يا هميان"، فتقدم هميان وأعطى لشادر هراوته، وتراجع جَمْعُ القبيلتين قليلًا كما طلب منهم سادر، ووقفوا برهبة لمتابعة النِّزَال، بينما احتشد أصحاب الأطواف على الجانب الآخر من النهر، والكل يتابع ما يجري وقد أطبق الصمت على الضفتين، وراحت القلوب تدق ويكاد يُسمع وجيفها على جانبي النهر.

هَزَّ شادر الهراوة في يده يتفحصها فأعجبته، ثم رَشَقَ سادر بنظرات بتارة، بعينين يُشِعُّ منهما حقد السنين الطوال، ثم قال لسادر بصوت مكتوم بالغيظ: "ما كان عليكم أن ترموني مقيدًا من مرتفع الشلال ذلك اليوم"، فرد عليه سادر: "أنت تعلم أني لم أشارك في ما جرى لك، ومع ذلك فقد كنتَ تستحق العقاب، لقاء قتلك زوجين لا ذنب لهما إلا الدفاع عن ابنتهما".

فقال شادر بوقاحة: "حسنًا، وما جدوى ما فعلاه وما فعلتم، إذا كنتُ سأحصل على ناشا بعد أن أقتلك".

عندها استبد الغضب بسادر وهجم على شادر وهو يقول: "الحقير لا يزال حقيرًا حتى الممات." ووجَّه لرأس شادر ضربة تحاشاها شادر برشاقة، وكرر سادر المحاولة بضربة إلى صدر شادر، فتراجع شادر بجسمه وأخطأته الهراوة.

كانت رهبة الموت آخذة بخناق الجميع وهم يرقبون مصاولة القائدين، مُدْرِكِين أن واحدًا منهما فقط سيخرج حيًا عمّا قليل من هذا النزال، فانعقدت الألسن، وتقيَّدت الأقدام، ولم تَعُد تُسْمَع إلا زمجرة الرجلين وهمهمتهما في حلبة الموت.

واصل القائدان مبارزتهما، وباغت شادر سادر بضربة قوية نحو رأسه، فمال منها سادر، ومرت الهراوة بجوار رأسه وللهواء منها صفير من شدة الضربة وسرعتها، فتدفق الخوف في قلوب أبناء القبيلتين، باستثناء سادر نفسه، الذي ظل ثابت الجَنَان، لا يهتز من هول الموقف الذي قبل أن يقفه.

وخَطَرَ ببال سادر إعمال الحيلة للتغلب على قوة خصمه، فوجَّه ضربة تظاهر بأنه يريد بها أرجل شادر، فتراجع شادر بأرجله إلى الوراء مبرزًا صدره، فحول سادر اتجاه الضربة نحو صدره، فأصابت الضربة هدفها، وبدأت الدماء تسيل من صدر شادر، فاستفزته إصابته، وتقدم ليرد الضربة لسادر، فأخذ سادر يتقهقر إلى الوراء، لكنه تعثر بحجر وسقط على قفاه، فخَطَف شادر الفرصة، وانقض على سادر وأنهال على رأسه بضربات متتالية، كانت أي منها كفيلة بقتل سادر، لكنه أراد أن يكون متأكدًا من موت سادر، فهتف أصحاب الأطواف من الضفة المقابلة بفرح وحماسة غامرين.

هُرع ميراك وناشا وهميان وعدد من رجال القبيلتين نحو سادر، ليروا إن كان ثمة عَوْن يمكن تقديمه له، فوجدوه جثة هامدة، وصرخ أحد الرجال: "اقتلوا شادر"، فقال شادر على الفور: "لقد وعدني سادر بألا تغدرون.. ألا تحترمون

وعد زعيمكم؟" فلم يُغْنِ شادر كلامه، وطَوَّقَه رجال القبيلتين سريعًا لكي لا يُفلت، وأخذوا يُضَيِّقُون دائرتهم حوله، وهو يدور ويناور بهراوته يدفع بها عن نفسه، وينظر عساه يجد له بين القوم منفذًا يندفع منه إلى النهر، ليفر نحو الضفة الأخرى، وعندها صرخ ميراك بالجميع: "دعوه، دعوه، هيا ابتعدوا، التزموا بوعد سادر واتركوا الحقير لي، سأواجهه أنا"، ولم يزل ميراك يصيح برجال القبيلتين، ويبعدهم عن شادر حتى تراجعوا عنه، في الوقت الذي بدأ فيه بضعة رجال من أصحاب الأطواف بدخول الماء، وكأنهم يُهِمُّون بعبور النهر لنجدة شادر، فلما رأوا رجال القبيلتين يتراجعون عنه توقفوا مكانهم.

أخذ هميان وظريف جثة سادر من المكان، بينما كان ميراك يقف أمام شادر كالأسد الجريح، الذي يشعر من يراه بأن ما من شيء يقدر أن يثنيه عن الفتك بعدوه، وقال: "هيا أيها الوغد واجهني".

ظل شادر في مكانه متأهب وقال: "نعم سأواجهك، لكي أُفني أسرتكم من الوجود"، وكانت الدماء لا تزال تسيل على صدر شادر وإن كانت خفيفة، ففكر ميراك بأن عليه أن يستفيد من إصابة شادر تلك، فتقدم موجهًا ضربة إلى صدر شادر، فراغ منها شادر متراجعًا وقال: "سأُلْحِقك الآن بأبيك وبجدك اللعين، يجب ألا أُبقي لكم على الأرض أثرًا".

فقال ميراك بصوت قوي، ونبرة تَنُم عن غيظ وقسوة كما لم يُعرف منه من قبل: "لقد غدرت برجل تعثرت قدمه أيها الحقير"، فرد شادر قائلًا: "لا يغدر إلا القادرون، فاغدر إن استطعت"، وراح ميراك يتفحص جسم شادر المفتول ليرى إلى أي مكان يحاول توجيه ضربته القادمة، وتذكّر ساق شادر اليسرى التي قالوا أنها كانت مصابة عندما وجده أصحاب الأطواف في البحر، فعقد العزم على الوصول إليها بأية طريقة، وبينما كان ميراك يفكر كيف يُنفِّذ ما عزم عليه،

وجَّه شادر إلى رأسه ضربة قوية، فجلس ميراك بسرعة مُتحاشيًا الضربة، ومرَّت الهراوة يَصْفِر هواءها فوق رأسه، فوجد نفسه تلك اللحظة جالسًا في مواجهة ساقَي شادر، فسارع بضرب ساق شادر اليسرى، واضعًا كل غيظه وقوته في تلك الضربة، فسُمِع صوت تهشم الساق، وصرخ شادر صرخة دوَّت على جانبي النهر، وسقط أرضًا مفلتًا هراوته، وأمسك بساقه المصابة. صاحت ناشا محرضة ابنها: "اقتله يا ميراك"، فراح ميراك يوجه الضربة تلو الأخرى إلى رأس شادر وهو طريح الأرض، لكنه كان يراوغ برأسه ويتحاشى الضربات وهو يزحف إلى الوراء معتمدًا على يديه، وقال: "لقد سمعت بأنك رجل طيب يا ميراك، تُحب الجميع وتدعو إلى محبة الجميع، وعليك أن تعلم بأني لم أشأ قتال والدك إلا لأن جدك حاول قتلي، وكسر ساقي هذه حين رماني من مرتفع الشلال".

فقال له ميراك: "نعم أنا أحب الجميع، ولكن يأبى أمثالك المحبة وتأباهم، فذق ما جنت يداك"، وضرب ساق شادر اليسرى مرة أخرى، فصرخ شادر صرخة مريعة أشد من سابقتها، ثم بدا بعدها أن شيئًا ما تهدّم في نفس شادر، فغابت سمات القسوة في وجهه، وغامت نظرات الشر في عينيه، وظهرت مكانها نظرات التسليم للقدر، ذلك القدر الذي فرّ منه منذ سنين عديدة، حين ألقاه جدّ ميراك إلى أسفل الشلال أمام أنظار ناشا، وها هو ذا اليوم يستسلم له أمام أنظارها.

وصاحت ناشا بابنها من جديد: "اقتله يا ميراك".

فأمسك ميراك هراوته بكلتا يديه، ونزل بها على رأس شادر بقوة، فوقع على قفاه بلا حراك جثة هامدة، وَعَلَت عند ذاك صيحات رجال القبيلتين جَذلى وصاخبة، وهَبُّوا نحو ميراك وحملوه على الأكتاف وهم يهتفون: "ميراك، ميراك،

ميراك"، أما أصحاب الأطواف فكان السكون يخيم على ناحيتهم، ومع ذلك لم تظهر عليهم سمات الحزن لنهاية قائدهم، ولا سمات الفرح، وبدو كمن استيقظ في مكان لا يعرفه، يبدأ بالحيرة.. ثم يتذكر خط سير الأحداث، علّه يفهم من أين وإلى أين.

المحتويات



فجر البشرية

عبدالرحمن السقاف الطهيفي

عصور للنشر والتوزيع

Mobile: +962795979893/ P.O.box: 910431 Amman 11191Jordan

E:Mail: ausoor2020@gmail.com

9 789923 751695